رواية

فوزي كريم

من يخاف مدينة النحاس؟

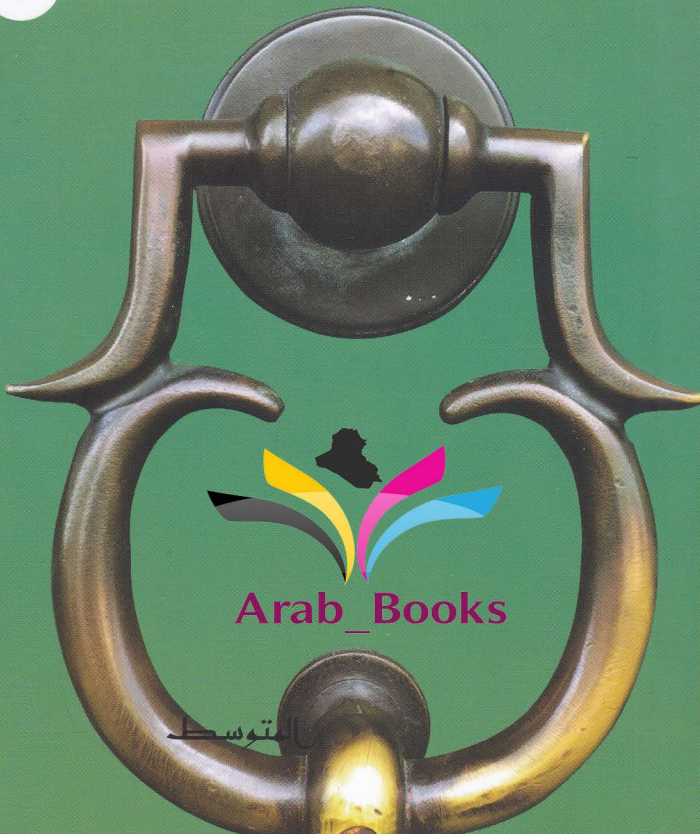

Arab_Books

المتوسط

من الكتاب:

في عام ١٩٨٧، كتبتُ قصةً بعنوان «مدينة النحاس»

في الثاني من مايس ٢٠١٦ بالضبط، وكانت حالتي الصحّية في اضطراب، جلستُ أمام جهاز الكومبيوتر، أنزلتُ كتاب «مدينة النحاس» من الإنترنيت؛ حيث لم أكن أملك نسخة ورقية منه، وقرأتُ على عجل القصّة القصيرة. استعدتُ بضعة تفاصيل، كانت نافعة في استثارة الرواية الكامنة، أو الجاهزة بكلمة أدقّ، في داخلي. فتحتُ فايلاً، كتبتُ على رأس الصفحة الأولى منه العنوان «مَن يخاف مدينة النحاس؟»، ثمّ نسختُ الفقرة الأولى من القصّة دون تغيير، وشرعتُ في المواصلة. كانت الروايةُ جاهزة في داخلي، تُملي عليَّ الكلماتِ، الفقراتِ والصفحات. أتوقّفُ وأتركُ المواصلةَ لليوم التالي؛ لأني كنتُ أشعر - بفعل يُسْر هذا الإملاء - أن تدفُّقَ النثر قد يقودني إلى استرسال فائض عن السياق في داخلي. أو ربّما يكون الإجهادُ الذي لا أتبيّنه، وراء هذا الوَهْم.

من يخاف مدينة النحاس؟

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٨ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجَّهة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Who's Afraid of The Capper City? *by* "Fawzi Karim"
Copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: فوزي كريم / عنوان الكتاب: من يخاف مدينة النحاس
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-30-7

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

فوزي كريم

من يخاف مدينة النحاس؟

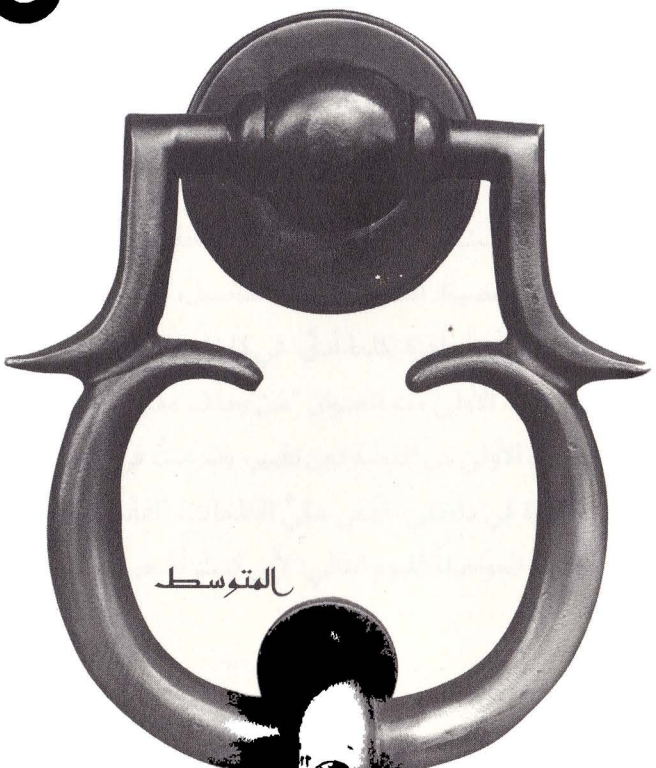

مقدّمة قد تكون نافعة، وإهداء

في عام ١٩٨٧، كتبتُ قصةً بعنوان "مدينة النحاس"، نشرتُها في مجلّة "الاغتراب الأدبي" في العام ذاته، ثمّ نشرتُها مع نصوصٍ حكائية أخرى في كتاب، تحت العنوان ذاته، في دار المدى عام ١٩٩٥. حين كتبتُها، ونشرتُها في مجلّة وكتاب، كنتُ أشعر عميقاً بأني إنما كتبتُ مُخطّطاً موجزاً لرواية. وبقي هذا الشعورُ يلازمني سنواتٍ، كلّما تذكّرتُ القصّة، أو وقعتْ عيناي عليها صدفة. ولكني لم أحاولْ مرّةً أن أجرّب على الورق حتّى كتابةَ مطلع لهذه الرواية، التي أشعرها - بصورةٍ من الصور - تتنامى في رأسي عبر السنوات. ألأني لمْ أُجرّب كتابة الرواية من قبل؟! أمْ بدافع الكسل ربمّا؟!

في الثاني من مايس ٢٠١٦ بالضبط، وكانت حالتي الصحّية في اضطراب، جلستُ أمام جهاز الكومبيوتر، أنزلتُ كتاب "مدينة النحاس" من الإنترنيت؛ حيث لم أكن أملك نسخة ورقية منه، وقرأتُ على عجل القصّة القصيرة. استعدتُ بضعة تفاصيل، كانت نافعة في استثارة الرواية الكامنة، أو الجاهزة بكلمة أدقّ، في داخلي. فتحتُ فايلاً، كتبتُ على رأس الصفحة الأولى منه العنوان "مَن يخاف مدينة النحاس؟"، ثمّ نسختُ الفقرة الأولى من القصّةِ دون تغيير، وشرعتُ في المواصلة. كانت الروايةُ جاهزة في داخلي، تُملي عليَّ الكلماتِ، الفقراتِ والصفحات. أتوقّفُ وأتركُ المواصلةَ لليوم التالي؛ لأني كنتُ أشعر - بفعل يُسْر هذا الإملاء -

أن تدفُّقَ النثر قد يقودني إلى استرسال فائض عن السياق في داخلي. أو ربمّا يكون الإجهادُ الذي لا أتبيّنه، وراء هذا الوَهْم.

كنتُ أشعرُ أن الكتابةَ الروائية تنطوي على متعةٍ، تذكّرني بمتعتي حين أكتبُ النثرَ النقدي. على خلافِ ذلك، حين أنصرفُ لكتابةِ القصيدة؛ لأني معها يُثقلُ عليّ إجهادٌ ، وكأني في مُعترك، ربمّا مع اللغة. اللغةُ في الرواية مستسلمةٌ بصورة تامّة لقدراتي. في الشعر، تقفُ طرفاً في معترك، حتّى لأبدو، أنا الطرف الآخر، مُستضعَفاً.

واصلتُ الكتابةَ كلَّ يوم. لعلّ يوماً أو يومين قد أفلتا، بسبب زيارة المستشفى. وفي بحر أسبوعين، أو أكثر بقليل، أكملتُ العمل، وأنا في غاية المتعة. أنا أحبُّ النثر، وكثيرُ القراءة للقصّة القصيرة والرواية. وقراءتها تُضفي عليَّ المُتعةَ ذاتها. في حين تمُلي عليَّ قراءة الشعر وطأةَ ذلك المعترك ذاته، لحظة كتابته.

هذه الروايةُ مُهداةٌ إلى القارئ الذي يرتضيها؛ ويشعرُ، وهو يقرأ، أنه يُسهم في كتابتها.

فوزي كريم

".. أين أنت عن غريبٍ، لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان!"

".. الغريبُ مَن هو في غربته غريب."

أبو حيّان التوحيدي

In the books lies the whole of the Past Times: the articulate audible voice of the past, when the body and material substance of it has altogether vanished like a dream.

T. Carlyle / The Hero as Man of Letters

القسم الأوّل

١

توقّفتُ، وأنا أتصفّح كتابَ "مروج الذهب" للمسعودي، عند حديثِ مدينة النحاس.. "وأنها مدينةٌ كلُّ بنائها من نحاسٍ، بصحراء سلْجماسة، ظفرَ يها موسى بن نصير في غزوته إلى المغرب، وأنها مغلقةُ الأبوابِ، وأنَّ الصاعدَ إليها، إذا أشرفَ على الحائط، صفّق، ورمى بنفسه، فلا يرجع آخرَ الدهر". ووجدتُني أستعيدُ الصفحةَ التي ورد فيها الخبرُ، كلّما وقعتُ على كتاب "مروج الذهب" بين صفوفِ كُتُبي المركومة في الصندوق الخشبي. وما أثار دهشتي حقّاً أن ورودَ الخبرِ دون إشاراتٍ وشروحٍ في الهامش، قد خلّف لديَّ شيئاً من خيبةِ الأملِ والمرارة، حتّى لكأنَّ هذه المدينةَ العجيبةَ قد وجدتْ صدىً في نفسي.

كان عهدُ كتابِ "مروج الذهب" بالتحقيق قديماً؛ إذْ إن الوقتَ الذي توفّر للسيد ديرمبورگ عام ١٨٥٢، بعد انتهائه من الجهد المُبالغ به في فهرسةِ مخطوطاتِ المكتبةِ الإمبراطورية الوطنية في باريس، لم يكن وحدَه ليتّسعَ لإتمامِ تحقيقِ هذا الكتاب، لولا جهودُ السيد باربيه دي مينار، الذي أتمّه في تسعةِ مجلّدات. كنتُ أعرفُ هذه المعلومة، وأنا أتصفّحُ النسخةَ غيرَ المعتمدة، والتجارية التي شاعت مثيلاتُها هذه الأيام. ولأنني لم أوفّرْ جهداً للبحث عن نسخةٍ محقّقةٍ في سوق "السراي" القديم، وفي المكتباتِ العامّة، ولأن هذا الجهدَ لم يُكتَب له النجاح، فقد عزّز إخفاقي هذا رغبة،

لا مَردَّ لها في إضافةِ هامشٍ مفقودٍ في النسخةِ التي بين يدي عن "مدينةِ النحاس" هذه. وأخذتُ للتوِّ ورقةً وقلماً، وكتبتُ رسالةً استفهاميةً إلى الباحث المُحقِّق، الذي لم يُصرّح باسمه. ووضعتُ على صفحةِ المظروفِ الأمامية عنواناً ورد في آخر المطبوع، يقعُ في القاهرةِ القديمة، ودَسَستُ الرسالةَ في صندوق مبنى البريد المركزي الواقع في شارعِ الرشيد، كمَنْ يهمّ بالخطوة الأولى في مسيرةٍ عسيرة.

وانتظرتُ - بنفادِ صبر - أسابيعَ وشهوراً دون أن أحصلَ على إجابةٍ ما، بالرغم من أن هذا كان في الحسبان. فرسالتي ضربٌ من العَبَث، وذلك العنوانُ لم يكنْ يبدو إلا بِدعةً، لا صحّة لها.

والآن، لأعُدْ، من أجل إضافةٍ قد تكون نافعةً، إلى صندوق كُتُبي الخشبي.

كان بيتُنا في محلّة "العبّاسيّة/ كرادة مريم" متواضعاً، تُحيطُ باحتَه الوسطى أربعُ غرف. احتلّ أخي المتزوّجُ أوسعَها، في الواجهة الأمامية اليُسرى للبيت. وتوزّعنا، نحن البقيةُ على غرفتين خلفيتين. في حين تركنا الغرفةَ الرابعة في الواجهة اليمين للضيوف. وهو محضُ تقليد، لم نلتزمْ به، لا لندرة الضيوف أصلاً في حياتنا اليومية، بل لأن غرفةَ الواجهةِ هي مجالُ نشاط أو قيلولةِ العائلة النهاريَيْن. مع أن حوشَ البيتِ الأوسطَ، الذي تُظلُّه شجرةُ توت في وسطه، هو المجالُ الحقيقي لنشاط الجميع، وخاصّة أمّي. كانت أشبه بخيالٍ لا ينقطعُ عن الحركة البطيئةِ الوادعة، بين الركنِ المسقوفِ الذي تستخدمُه كمطبخ، والتنّورِ في الركن المقابل، و"الحُبّ" الفخّار البارد الماء المستقرِّ على قاعدةٍ خشبية، والمُستندِ على جذعِ شجرةِ التوت، أو المجازِ الذي يوصلُ للبابِ الخارجي. وإذا شاء خيالُ أمّي أن

يستريحَ، فعلى وسادةِ أرض في ظلّ الشجرة، تجلس وتتحدّث مع عمّتي، التي كانت عمياء، أو مع زائرةٍ من الجيران. وكان صحنُ "السجائر المزبّن" يحتلُّ الفسحةَ الصغيرةَ بينهنّ دائماً.

كانت الغرفةُ الرابعةُ مُعتزلي. كنتُ وحدي المولعُ بالقراءة، ووحدي من بينهم الذي واصلَ دراستَه؛ ولأني كنتُ مولعاً بقراءةِ كُتُبِ التراث بصورةٍ خاصّة، فقد أضفى هذا على قراءتي صبغةً جدّيّةً في نظرهم، الأمرُ الذي جعلهم يرون في هذا الركنِ من البيت غرفةً متروكةً لي، لا حاجةَ لهم بها معظم الأحيان. كنتُ أقرأ، وأكتب فيها دون مقاطعةٍ من أحد. وعلى قلّةِ مصروفي اليومي، الذي كانت أمّي تقتطعه لي من مصروف البيت، كنتُ أوفّر منه بين حين وآخر ما يمكّنني من شراء كتاب. ولمزيد من الخصوصية، جعلتُ هذا الصندوقَ الخشبي الذي يرتفع قرابةَ قَدَمين، ويمتدُّ لثلاثةِ أقدام، مكتبتي التي لا يقرَبها أحد. فيه أرتّب كُتُبي، وأعيدُ ترتيبَها كلَّ حين، وعادةً ما أحتفظ تحتها بدفتر ملاحظاتي ويومياتي، بحكمِ الغريزة، لا بحكمِ الحذر. فما من أحدٍ بيننا مَن يملكُ فضولاً بشأنِ مشاغلِ كياني كله، خاصةً وأن الكتبَ التي أقرأ أبعد ما تكون صلةً عن الحاضر. والحاضرُ سياسةٌ. والسياسةُ، كما يعرفُ الجميع، حافّةٌ سكّين، ورصاصةٌ طائشة، قد تتعرّض لهما كلُّ رقبةٍ، وكلُّ رأس. هذا ما كان يُخيفُهم، ويدفعُهم لمزيدٍ من الحذر.

كانت أمّي تُطلّ من الباب أحياناً؛ لتسألني إذا ما كنتُ راغباً في لفّة جبن، أو استكان شاي، أو ماء، وعادة ما تكتفي بصمتي. "يا أمّي" كنتُ أقول لها أحياناً "سأقومُ بنفسي، لو احتجت." ولكنها لا ترى في جملتي ما يَعنيها؛ لأنها تعتقدُ أنها تَصدرُ عن عضلةِ لسان، في رأسٍ مشغولٍ عن الدنيا.

إلى جانبِ "مروج الذهب" كان الصندوقُ الخشبي يضمّ كتابَ "حكاية أبي القاسم البغدادي" و"رسائل التوحيدي"، و"الإشارات الإلهية"، و"الحيوان"، و"منامات الوهراني"، وأجزاء من "الأغاني"، كان يُطبَع بملازم متفرّقة في بيروت؛ ليسهُل شراؤه، و"اللزوميات"، و"رسالة الغفران"، و"ديوان أبي نوّاس"، و"ديوان ابن الرومي"، و"كليلة ودمنة"، وملازمَ متفرّقة من كُتُب متفرّقة. وكنتُ أحتفظُ بملفّ، أقتطعُ له كل الصفحاتِ المصوّرة من المخطوطات الواردة في سياق المقدّمة، وأنظّمُها فيه، مع هامشٍ تحت كلِّ صورة مخطوطة، أحاولُ فيه محاكاةَ الكتابة القديمة. لم أكنْ مَعنيّاً بالخط العربي وفنونِه، وليست لي فيه درايةٌ، بقدر ما كنتُ مسحوراً بالزمن المُندثرِ داخلَ تلافيف الحروف. الزمن الذي لا صوت له، ولكنه مَرئيٌّ ملء البصر. ولعلّ قراءتي المصوّتةَ لهذه النصوص القديمة، وكنتُ دائماً ما أقرأُ بصوتٍ مسموع، ليستْ إلا محاولةً غيرَ واعيةٍ لبعثِ هذا الصوت.

كنتُ ألتقي - في أحيان متباعدة - السيد هادي الذي يكبُرني سنّاً، والذي يقيم في محلّتنا، وتجمعُنا به قرابة. كان مولعاً هو الآخر بالتراث العربي الإسلامي، ولكنْ؛ بصورةٍ تبدو لي بعيدةً تماماً عن طبيعة وَلَعي. معرفتُه في هذا الحقل أوسعُ بكثير من معرفتي، ولا وجهَ للمقارنة. كان مؤلّفَ كُتُب، ويتحدّث في حقل الفكر والفلسفة بصورة، تتجاوز معرفتي وقدرتي على الاستيعاب. كان فارقُ السّنّ بيننا يُعزّيني في هذا، ولكن التعزيةَ الأهمّ كنتُ أجدها في الفارق الجوهري بين هدفينا. كان السيّد ذا هدفٍ، يصحّ أن أقولَ عنه إنه هدفٌ اجتماعي. كان يسعى للتغيير، ولكنْ؛ بمعنى لمْ أكن أنا على درايةٍ به، وفَهْمٍ له. كان مفكّراً بحقّ، أما أنا؛ فربمّا كنتُ حالماً بحقّ، ولكنْ؛ في مطلع شباب الحالمِ القاصر. كان هدفي،

إذا ما كان واضحاً لي كفايةً، هو الإصغاءُ لصوتِ الزمنِ الماضي، الذي يطلعُ عليَّ ملء البصر، كما قلتُ. إصغاءٌ مستحيلٌ، وربّما يخلو من أيِّ معنى. كنتُ حين أقرأ وأصوّتُ في قراءتي، فلهدفٍ طبعاً. ولكن ملاحقةَ المعنى أو فَهْمَه لم يكونا هدفاً بالتأكيد. كنتُ - في أحيان كثيرةٍ - لا أفهم ما أقرأ. تستعصي عليَّ الكلماتُ والجملُ، بالرغم من استعانتي بالشروح في الهوامش. فهل تُرى توقّفتُ عند خبر "مدينة النحاس" بفعل دافعٍ شبيهٍ بهذا؟! كأن تكون رغبةُ "الصاعد إليها، إذا أشرف على الحائط صفّق.."، لكي يسمع صدىً لتصفيقه؟! وهل إنه لم يسمع شيئاً من هذا، فرمى بنفسه؟! وإذا رمى بنفسه، فلنْ يرجعَ أبدَ الدهر. والعرب تقول "دهراً" لا "زمناً"، إذا عنتْ زمناً مطلقاً!

ظلّ صندوقُ الخشب فقيراً، مع رغبتي في القراءة، واتّساع مداها، بسبب قصورِ ذات اليد. فمُدّخري من المصروف، بعد أن يذهبَ قسطٌ منه لأجرة الباص الذي يقلّني إلى الكُلّيّة، وقسطٌ آخر لخمسةِ سجائر، أحرصُ على توفيرها كل يوم، وأوزّعها بالحرصِ ذاتِه على أوقاتٍ بعينها، بعد الإفطار، ووجبةِ الغَداءِ، والعَشاءِ، وبعد شايات الليل، أقول إن هذا المُدّخرَ عاجزٌ عن أن يلبّي نسبةً بالغةَ التواضعِ من رغبتي في شراء الكُتُب. ولذلك سعيتُ إلى "حسينية كرادة مريم"، التي أعلمني السيد هادي بأنها تضمُّ مكتبةً غنيةً بكُتُب التراث. والحسينيةُ هي المسجدُ الجامع الخاصّ بالشيعة، وكرادة مريم منطقةٌ شيعيةٌ لدى سَكَنَتها الأصليين. وبالفعل وجدتُ كلَّ ما أتوقُ إليه هناك، وصرتُ أزورُها أكثرَ من مرّةٍ في الأسبوع، وأحياناً كلَّ يوم. أقرأ هناك حتّى تُغلق، وأستعيرُ منها ما أرغب فيه دون عائق. بعد أقلّ من شهرين، فاتحني إمامُ المسجد، وقد رأى مواظبتي في الزيارة، وارتيادَ شبّانٍ من عمري لم يكن يألف زيارتهم من قبل، بأن أستلمَ

إدارةَ المكتبة، إذا كنتُ أرغب. وقبلتُ العرض على الفور، بغبطةِ مَن يُسلّم كيانَه كلَّه لحياةٍ جديدة، وأسلمني مفتاحَ المكتبةِ على الأثر.

المكتبةُ في غرفة متوسّطة الحجم، ورفوفُ الجدران الأربعةِ التي تبلغُ السقفَ معبّأةٌ بالكُتُب المجلّدة السوداء اللون في الأغلب. في الوسط، طاولةٌ تتراكمُ عليها بعضُ الكُتُبُ المُسْترَجعة، في انتظار إعادتِها إلى رفوفِها، ودفترٌ كبيرُ الحجم لتسجيلِ نشاط الاستعارة. في كلِّ صفحة منه حقلٌ للمستعير، الكُتُب، تاريخ استعارتها، وتاريخ إعادتها. حاولتُ جاهداً أن أغذّي هذا النشاطَ بمزيدٍ من الحياة، ولكني - في حقيقة أمري - كنتُ ممتلئاً كفايةً بهذا الوافدِ الجديدِ من الكُتُبِ على حياتي الفقيرة. كنتُ لا أتوقّف عن التجوالِ بين الرفوف، أتابعُ عناوينَ كُتُبها، أكتفي بالعنوان على الكعبِ الجلدي، أو أسحبُ الكتابَ، وأقلّبُ أوراقَه. كانت روحي تتغذّى من أنفاسي المشبعةِ برائحةِ الورق. وكأن هناك رائحةً منفردةً لكلِّ كتاب. لم يعدْ صوتُ الكلمات المسموعُ ينفردُ وحدَه بإصغائي كصوتٍ للزمنِ الخفيّ، الزمنِ الخفيّ في "مدينة النحاس"، بل رائحةُ الورق ومَلمسُه يُسهمان بالاتجاه ذاته.

كنتُ - حينها - قد نسيتُ "مدينةَ النحاس"، إلا أصداءَ لا تكفُّ عن التردُّدِ في أقبيةِ مخيّلتي نصفِ المضاءة؛ كما نسيتُ، بالطريقة ذاتها، كتابَ "مروج الذهب". وغرقتُ محتفياً بهذا الكَمِّ الهائلِ الحيويِّ المُنعشِ من أمواجِ الكُتُب القديمة، وبزحمةِ هذه الصفحاتِ المصوّرةِ لأوراق المخطوطات. ولعلّي قطعتُ من الزمنِ أكثرَ من شهرين، وأنا لا أقرأُ كتاباً بعينه، بل أتوزّعُ بين العناوين، والطبعاتِ الأولى المتنوّعة، التي لم تقعْ على مثلها عيناي من قبلُ. كنتُ أعودُ كلَّ يوم - تقريباً - إلى كتاب "الأغاني" في طبعةِ دار

الكُتُب المصرية الأولى، بالحجمِ الكبير المجلّد، أتلمّسُ أوراقَه الثقيلةَ اللمّاعةَ، وأكتفي بتقليبها، وأتأمّلُ هوامشَها، وفهارسَها. وأحياناً أتوقّف، وأقرأ خبراً عن شاعر، أو مغنٍّ، بصوت لا يسمعه أحدٌ سواي. وتُطربني الأسطر التي تكتفي بغنى الصوت، وما من معنىً لمدركاتي: ".. الشعرُ للسُّليك بن السُّلَكة، والغناءُ لابن سريج، رملٌ بالسبّابةِ في مجرى البنصرِ عن إسحاق. وفيه لابن الهِرْيذ لحنٌ من رواية بذْل. ولم يذكر طريقتَه. وفيه لابن طنبورة لحنٌ، ذكره إبراهيمُ في كتابه، ولم يُجنّسه." أتوقّف، وأضحك مبتهجاً. أيتردّد في هذا صوتٌ للزمن الذي لا صوت له؟!

لا أخفي على النفس، وأنا أكتبُ الآن، بأني كنتُ أتوقّف وأنصتُ بشيء من الروع، وعيني تلاحقُ الكُتُبَ المرصوفةَ على أرففِ الجدران الأربعة، كمَن يُصغي لصدى، يخرجُ من أوراقها المستورةِ بين الأغلفةِ الجلد. في لحظاتٍ كهذه، كنتُ أستعيدُ خبرَ "مدينة النحاس"، وكتاب "المروج"، الذي لم أقعْ عليه، ويا للغرابة في هذه المكتبة الثرية. مع أن استعادةً كهذه كانت تجعلني في كلِّ مرّةٍ أقفُ وأواصلُ البحثَ من جديد. أضعُ السّلّمَ الخشبي الصغير، وأرتقيه إلى الرفوفِ التي تُحاذي السقف، ثمّ أعودُ خائباً. وسرعان ما تأخذُني موجةُ القراءة، وأغفلُ عن حكايةِ "مدينة النحاس" برمّتها.

كان لديّ عددٌ قليل من الأصدقاء يردون المكتبةَ بين حين وآخر، وأحياناً كلَّ يوم. ورغبتُهم في القراءة لم تكنْ مشجّعة نسبياً. كانوا يستعيرون الكتابَ، ولا يعود إلا بعد تذكيري لهم، ومطالبتي. وقد يعود دون قراءةٍ، أو دون قراءةٍ كاملة. الأمرُ الذي كان يُحبط لديّ الرغبةَ في الحديث عن الكُتُب والكتاب. وعادة ما أنشغلُ معهم بالجَدَل السياسي. وما كنتُ أجادلُ في الحقيقة، بل أكتفي بالتهميشِ غير المتحمّس. فأنا أكترثُ بما يحدث، ولكنْ؛ من

زاويةٍ أعتقدها رهينةَ معيارٍ واحد، هو معيارُ الخير والشر. وهذا ما فهمتُه عن يقينٍ، فيما بعد. كنتُ أستثني من بينهم واحداً، اسمه كاظم، يقاربُ عمري، ويتميّز بنشاطٍ عقليٍّ مُلفتٍ للنظر، إلى جانب عاطفةٍ سرعان ما تُصبح جيّاشةً، ما إن يمسّها أمرُ يستهويه. كان يحبّ الشعرَ العربي القديم، والشعرَ الجاهلي بصورةٍ خاصة. كان يقول لي إن الصلابةَ في الصورة المرئية في هذا الشعر، تتطابقُ بصورة فريدةٍ مع صلابةِ اللفظ. ثمّ يقرأ ما يحفظُ من أمثلةٍ تستهويه، وأنا أوافقه متحمّساً. حدّثتُه بدوري عن محبّتي لمعلّقةِ لبيد، ربمّا للسبب ذاته. وذكرتُ له، دون تحرّجٍ، كيف كنتُ أقرؤها، وربمّا ما أزال، مأخوذاً بالصوت الموسيقي للكلمات التي لا أعي معناها. كان يهتفُ مبتهجاً "تماماً، تماماً كما تقول." ولكني لم أكنْ أجرؤ على الذهاب أبعدَ من ذلك. فأنا لم أعتَد الثقةَ بالنفس بشأن ما أعتقده. ولو حدّثتُه عن الزمن الماضي المرئي ملء البصر، والذي لا صوتَ له، لارتبك صوتي أنا. فأنا لم أسمعْ كلماتي بهذا الشأن منطوقةً على لساني. كنتُ أحدّثُ بها نفسي بصمت، كما يمكن لكَ أن تتخيّل. نحن جميعاً نتحدّثُ مع أنفسنا بصوتٍ داخليّ. وحتّى لو كان هذا الصوتُ خارجياً، فنحن - على الأغلب - لا ننتبه إليه.

كان كاظم يستعيرُ كُتُباً شعرية، ليستْ المعلّقات الجاهلية من بينها؛ لأنه كان يحفظ أكثرها عن ظهر قلب، الأمرُ الذي كان مثارَ دهشتي الدائمة، وإعجابي. استعار "ديوان الحماسة"، وكان يحمله بيده دائماً، كلّما زارني في المكتبة. وكعادةِ حماسته التي لا تُطفأ، كان ما إن يدخل عليَّ غرفةَ المكتبة، حتّى يفتحَ الكتابَ على صفحةٍ بعينها، ويقرأ. وقبل أن يقرأ، يحلو له أن يقولَ جملتَه الأثيرةَ: "تابع معي صلابةَ الصورة وصلابةَ الصوت."

أحياناً أجيءُ المكتبةَ صباحاً، أيام الجُمع والعطلِ الرسمية. ويحرص كاظم وآخرون على ذلك أيضاً. حين يأخذ بنا الجوعُ، نشتري من الدكان الملحق بالحسينية زجاجة كوكاكولا باردةً، وصمّونةً، تنتجُها مخابزُ الدولة آنذاك، وكانت رخيصةً ولذيذةَ الطعم. ولا نكفّ عن الحديث، إلى أن يحين موعد صلاة الجماعة، وتمتلئ باحة الحسينية بالمصلّين. حينها نُغلقُ الباب بهدوء، ونلوذُ بالصمت. فلم يكن أحدٌ منا يمارس طقسَ الصلاة، ولا أيَّ طقس من طقوس الدين. وما كان أحدٌ ممّن نعرفُ، وممّن لا نعرف، يتحقّقُ من أمرِ ذلك، فيسألنا أو يحتجُّ علينا. حتّى إمام المسجد كان يكتفي بإطراءِ إدارتي، وترغيبي الشبّانَ في القراءة. بغضِّ النظر عن طبيعةِ القراءة، والكُتُبِ التي تُقرأ.

ذات يومٍ، جئتُ المكتبةَ بعد الظهيرة، ولم يكن أحدٌ في انتظاري، كما لم أتوقّعَ أحداً. فالحيويةُ عادةً ما تدبُّ بيننا، نحن الأصدقاء في العصاري التي تُطفأ فيها حرارةُ الشمس.

وانصرفتُ، كعادتي حين أدخل المكتبة، إلى صفوفِ الكُتُب، ألاحقُ عناوينَها، رغبةً في أن آلفها جميعاً، دون استثناء. أحياناً أنتخب كتاباً، وأجلس أقرأ، وأحياناً أكتفي بمحاكاةِ كلماتِ المخطوطة المصوّرة في مقدّمات الكُتُب، أرسمها في دفتر ملاحظاتٍ، كنتُ أحرص على حمله معي. وأنا في غمرةِ هذه المحاكاة، دخل عليَّ رجلٌ كهلٌ، ببدلة سوداء قديمة، لا تلائم حرارة الصيف، وكان البابُ مُشرعاً كالعادة:

"السلام عليكم. كيف الحال أستاذ؟ كنت أنتظرُكَ في بهو الحسينية. رأيتُك حين دخلتَ، ولعلّكَ رأيتَني أيضاً. قلتُ مع نفسي أتركُكَ تأخذ راحتكَ قبل أن أُعيد إليكَ الكتابَ الذي استعرتُه منذ مدّةٍ، أعتقدُ أنها

طالت، وتجاوزت الحدَّ المسموحَ في الاستعارة. ولكنه كما ترى كتابٌ في مجلّدين ضخمين، ولا يكاد قارئُه، بالرغم من الطباعةِ المُتعبةِ للعين للأسف، وقد عانيتُ من ذلك بالتأكيد، لا يفلتُ من سِحْر تأثيره على النفسِ والعقل." ثمّ سلّمني المجلّدين الثقيلين اللذين وضعتُهما على الطاولة مباشرة. فتحتُ الغلافَ؛ لألقي نظرةً على العنوان، ولدهشتي، التي أربكتْني بصورةٍ، أربكتْ الرجلَ الكهل، قرأتُ عنوان "مروج الذهب"، بخطٍّ كبير أسود، مطبوعٍ بطريقةٍ بدائية تماماً. قلتُ له، وكأني أهوّنُ عليه ردّةَ فعلي الواضحة: " معكَ حقّ في معاناتك. قراءةُ طبعةٍ كهذه مشقّةٌ حقيقية. ولكنه كتاب غنيٌّ ومُمتع. أليسَ كذلك؟!" قلتُ هذا، وذهبتُ فوراً إلى دفتر الاستعارة، وصرتُ أقلّب تواريخَ الاستعارات المتأخّرة، فلم أعثرْ على عنوان الكتاب. ثمّ تجاوزتُ الأيامَ المتأخّرةَ إلى الأسابيع المتأخّرة، ثمّ الأشهرِ المتأخّرة، فلم أقعْ على شيء. قلتُ بابتسامةٍ لا بدّ أنها كانت ناشفةً بصورةٍ من الصور: "يبدو أنك استعرتَ الكتابَ قبل استلامي إدارة المكتبة. لا عليكَ، أُكتبْ اسمكَ على هذه الورقة، وسأبحثُ من جديد على راحتي فيما بعد." اعتذرَ الرجلُ الكهلُ بحياء، وهو يستلم الورقةَ من يدي، وانحنى على الطاولة، يكتبُ عليها اسمَه. "تعرف أستاذ؟ الكتابُ ليس من الكُتُب السهلة، بالرغم من المتعةِ التي يمنحها إيّاكَ. قد لا أبالغُ إذا ما قلتُ لكَ بأني، رغم المشقّة التي تسبّبها الطباعةُ البدائية، قرأتُه مرّتين. حتّى إني استنسختُ العديدَ من أخباره. كانت أسفارُ الرجل تبدو لي - في أحيان كثيرةٍ - أسفارَ مخيّلة، أكثرَ منها أسفارَ ذاكرة، أسفاراً مُتخيَّلةً، لا أسفاراً حقيقية. هذا ما أعني، أو ما أحسستُ به في أحيان كثيرة. هل توافقني؟ هذا إذا ما كنتَ أنتَ قد اطّلعتَ على الكتاب." أجبتُه بأني أوافقه الرأي، وأني اطّلعتُ على الكتاب، ولديّ منه نسخةٌ حديثة الطباعة، ولكنْ؛ غير مُحقّقة بصورة سليمة. ولم أُطل الإجابةَ، وكأني أتعجّل إنهاء المحادثة، ومغادرته، رغبةً في الانفراد بنسخةِ "المروج"

الغريبة هذه. كان الرجل مُتحرّجاً، ومتردّداً، وهو يغادر. مشيتُ خطواتٍ وراءه، ولم أعدْ حتّى رأيتُه يخرج ، ويختفي عن بصري. أقبلتُ على نسخةِ الكتاب، وفتحتُ الغلافَ المقوّى الأسودَ اللون، كما لو كان مُغلّفاً بقماشةٍ، لم تعد تحتفظ بعنصر القماش لقدمها. على صفحةِ العنوان الداخلي، قرأتُ وبخطٍّ طباعةٍ بالغ الرداءة: "مروج الذهب ومعادن الجوهر، نسخة بالطبعة الحجرية، أصفهان". جلستُ على الكرسي، واحتضنتُ الجزء الأوّل من الكتاب، ورحتُ أقلّب أوراقه الخشنة، وأعجَبُ كيف يُمكن لعين سليمةٍ أن تتابعَ الأحرفَ والكلماتِ والأسطرَ عامة. ثمّ تذكّرتُ الورقةَ التي ترك فيها الرجلُ الكهلُ اسمَه على الطاولة؛ وخشيةً من نسيانها وضياعِها بين الكُتُب المبعثرة، تركتُ كتاب "المروج" جانباً، وانحنيتُ على الطاولة؛ حيث الورقة. كان خطُّ الرجل الكهل ناعماً، بالرغم من حجم الورقة الواسع. قرّبتُ كتابتَه من عيني؛ كي أتبيّن الاسم، ولكني، لدهشتي، وجدتُ الاسمَ الثلاثي قد كُتب بصورة لا تكاد تمتُّ للأحرف العربية بصلة. هل بسبب سرعة هي طبيعة لديه؟ أم سوءِ الخط؟ أم..؟ ربّما محاكاةٍ لحروف الطبعةِ القديمة هذه، خاصة وأنه استنسخَ الكثيرَ من أخبار الكتاب بخطِّ يده، على حدِّ قوله. ولكن حروفَ الطبعة الحجرية ليستْ سيئةً إلى هذا الحدّ. حاولتُ متابعةَ أحرفِ اسمه، إذا ما كانت أحرفاً حقّاً، فوجدتُها تكاد تكون خيطاً متواصلاً. الكلمةُ الأولى أقربُ أن تكون "ساحل"، أو "شامل". والثانية التي تلتصق بها تشبه كلمة "مجعد"، أو لعلّها "محمد" أو "مجمد". والثالثة عَصيةً على القراءة تماماً، وعَصيةً على الاجتهاد في التأويل. هل ترى فعل ذلك عن قصد؟! ولكنْ؛ ما من سبب وجيه؛ ليفعل ذلك. فالاستعارةُ مجانية، ولا غرامةَ على التأخير. فأبعدتُ الفكرةَ عن رأسي، وابتسمتُ بفعل الحيرة، أو بفعل تأويلاتي الغريبة، وربّما بفعل مشاعر، انتابتني، لم أعتدْها لم قبل.

أخذتُ كتاب "المروج" بين يديَّ مرّة أخرى، وعدتُ إلى الكرسي، ورحتُ

أقلّب أوراقَه محاولاً القراءة. لم تكن يسيرةً أوّل الأمر، ولكنْ؛ سرعان ما تيسّرت لعيني. تذكّرتُ حكاية "مدينة النحاس"، وكأنها جاءتني من عالمٍ آخر غير عالم الكُتُب. عالمٌ كنتُ قد استشعرتُه حين وقعتْ عيناي على الحكاية أوّل مرّة. وتذكّرتُ الصدى الذي خلّفتْه في النفس، والمرّاتِ الكثيرة التي أعدتُ قراءتها فيها. وانتابتْني الرغبةُ القديمةُ في الاهتمام الغامض بها، ورحتُ أقلّب الصفحاتِ محاولاً أن أتذكّرَ موقعَها بين الفصول، في هذه النسخةِ العجيبة غير المحقّقة، ولا المُفهرَسَة.

كنتُ أذكر أنها وردتْ في نهاية المجلّد الأوّل من الكتاب، وأنها في مكانٍ ما وسطٍ بين أخبار فتح الأندلس، إذا ما كانت ذاكرتي موثوقة. صرتُ، على هذا الضوء، أقلّب الأوراق بتأنٍّ، وألقي نظرةً على الأسطر بتدقيق. أحسستُ أن الحروفَ والجملَ والأسطرَ تُجهد عيني، ولقد أوشكتُ على الانتهاء من المجلّدِ الذي بين يدي، ولم أقعْ على أثر. فكّرتُ أن أُرجئَ البحثَ لغد. حملتُ الكتاب إلى الطاولة، ووقّفتُ أتأمّل الورقةَ التي ترك الرجلُ الكهلُ فيها اسمه، وكأني أعوّل على احتمالاتٍ، لا تمتُّ للمنطق بصلة. لا شكّ أن الرجلَ الكهلَ يسكن هذه المنطقة، أو لعلّه جاء المكتبةَ من مكان آخر في بغداد الواسعة. من أين لي أن أعرف؟ لو كان معي أحدٌ من الأصدقاء أو الزوّار، إذنْ؛ لكان على معرفة بالرجل، على أكثر تقدير. خرجتُ من المكتبة إلى الحوش المفتوح وسط الحسينية، من أجل هواءٍ أخفّ من الهواء الذي ثقُل عليّ بين رفوف الكُتُب. كانت الحياةُ قد بدأت تدبُّ فيه، فقد خفّت الشمس، وصار الرجال يُقبلون إلى الحسينية، كما يُقبلون إلى مُلتقى أكثر غنىً من المقهى. فهنا تتزاحم مواضيعُ المحادثة فيما بينهم، وتتشعّب. والمواضيعُ، بالرغم من أن الدين ومعتقداتِ الطائفة يشكّلان العمود الفقري فيه، إلا أن اللحمَ والدمَ اللذين يكسوانه بالحياة عادةً ما يُحيطهم بدفء القصص والحكايات، التي لا تخلو من سِحْر الخيال.

اقتربتُ من أحدهم، وكان بدشداشته البيضاء يجلس على طرف مقعد خشبي طويل، وتمتدُّ تحتَه حصيرةٌ ناعمةٌ صفراء اللون، وقد ثنى ساقه اليمينَ إلى فوق، وأراحَ قدمَها على حافّةِ المقعد، كعادةِ الرجل الشعبي حين يجلس. تطلّع إليّ مبتسماً، وهو يمسّد سطحَ قدمِه العارية بأصابع يده: "أُأمر عزيزي"، قال. "عفواً عمّو، قبل فترة، جاءني رجلٌ كهل، يحمل كتابين كبيرين لإعادتهما إلى المكتبة، ثمّ خرج بعد ذلك بقليل. أعتقد أنكَ كنتَ حينها في مكانكَ هذا. هل تعرفه؟ لقد ترك اسمه على ورقة، لم أستطع قراءتها لسوء الخطّ." أخذ نصف دقيقة مُغمض العينين، من أجل أن يقرأ ذاكرته، ثمّ فتحهما قائلاً: "رجلٌ كهل؟ لا أعتقد أني أتذكّر رجلاً كهلاً يحمل كتابين دخل المكتبة، مع أني لم أكن مشغولاً بحديث مع أحد. كنتُ وحدي منذ أكثر من نصف ساعة. لم يأتِ أحد من الجماعة بعد." شكرتُه، وعدتُ إلى المكتبة.

بعد قليل، دخل كاظم مع شابّ، أعرفُه معرفةً عابرة. كان على عادته بالغَ الحيوية وبالغَ الأناقة. بدلةٌ صيفية رماديةٌ داكنة، هي ذاتها دائماً. قميصٌ مخطّطٌ، تلتف ياقتُه المُنشاة على رقبته، تنحدر من وسطها ربطةُ عنق داكنةِ الحمرة، وحذاءٌ أسود، لا شكّ أنه دهنه، ولمّعه في البيت، قبل أن يخرج. كان الشابّ إلى جانبه يرتدي دشداشةً ونعلاً جلدياً. أعجبتْني المفارقةُ بينهما، ولكنها كانت مؤلمة بصورة ما:

ـ ألا تزعجك سخونةُ الجوّ؟

ـ لدي موعدٌ مع أصدقاء في مقهى فاضل. قد أرجِعُ إلى البيت متأخّراً.

ـ أحبُّ أن أمتحنَك بقراءةِ ورقةٍ، استعْصتْ عليّ.

وتناولتُ الورقةَ من على الطاولة، وقدّمتُها له.

ـ رجلٌ كهلٌ أعاد كتاباً، لم أجده في سجلّ الاستعارة. سألتُه أن يترك اسمه؛ لأراجع السجلّ على راحتي، وهذا ما تركه.

نظر كاظم إلى الكلمات، وصار يحدّقُ، ثمّ رفع رأسه إليّ ضاحكاً:

ـ ها هو أحدُهم يخرج إليكَ من الماضي مَرئياً، ولكنْ؛ أخرس، ولا صوت له. ألا تبدو استجابةً لرغبة دفينةٍ فيكَ؟

أدهشتْني وقدةُ ذهنه اللمّاعة، ولا أُخفي أنها أربكتْني أيضاً.

ـ إذنْ؛ لم تستطعْ قراءةَ الاسم؟ أمرٌ يبعث على الحيرة.

ـ لا حيرة في الأمر. هل أعاد كتاباً تراثياً؟

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي.

ـ لا أشكُّ أن الرجلَ التراثي هذا يمارس محاكاتِكَ ذاتَها للمخطوطاتِ القديمة، فأربكتْ المحاكاةُ قلمَه إلى هذا الحدّ.

ـ ربمّا. سأخرج الآن إلى البيت. سآخذُ جادّة النهر. هل ترغب في أن نقطع الجادّةَ سوية.

ولك أن تواصل فيما بعد إلى ما بعد الجسر.

رحّب بمقترحي، وأرجأتُ كلَّ شيء يتّصل بكتاب "المروج" إلى غد. أطفأتُ الضوءَ، وخرجنا.

٢

حين خرجنا من "الحسينية" كان الشابّ بالدشداشة قد غادرَنَا باتجاه اليمين؛ حيث الشارع المُسفْلتُ الممتدُّ مع النهر إلى منطقته السَّكَنية. جادّتُنا تمتدّ باتجاهِ اليسار، ترابيةً حيناً، ومبلّطةً بالحجارةِ في أحيان. تضيقُ وتتّسع وفقاً لبناءِ البيوت الضخمةِ التي تعترضُ الطريقَ بين حينٍ وآخر. معظمُ أهالي "كرادة مريم" الأصليين لا شأن لهم ببناءِ هذه البيوتِ الضخمة، ذاتِ الشرفاتِ الخشبية على امتدادِ الطابق الأوّلِ من واجهةِ البيت. إنها تعودُ، على قلّةِ عددها، إلى أثرياءٍ وافدين، لا علاقة اجتماعية لهم بسَكَنَةِ الأحياءِ من حولهم. ولقد اطّلعتُ فيما بعد على صورةٍ فوتوغرافية لأگاثا كريستي، كاتبة الجرائم المُلغّزة البريطانية، وهي تجلسُ على واحدةٍ من هذه الشرفات، متطلّعةً إلى نهر دجلة أمامها، أو قارئةً في كتاب، لم أعد أذكر.

مشاهدُ "شارع أبي نؤاس" الرائعة، على الضفّةِ الأخرى من نهرِ دجلة، لا تنقطعُ عن تغذية خيالنا بسِحرِ العالمِ الآخر الذي لا ينتسب لنا. كان النهرُ - بالمقابل - ينتسبُ لنا، ما دام على امتدادِ "كرادة مريم"، بكلِّ ما فيه من ماءٍ وأسماكٍ وزوارقَ وجزرٍ رملية. كنا نحتلُّ كلَّ شبر فيه، أو هكذا كان يُخيّل لنا، بزوارقنا التي تتنوعُ مهمّاتُها، بين صيدِ السمك، أو استخدامِها وسيلةَ عبور بين جهتَي الكرخ والرصافة بأجرٍ زهيد، أو تأجيرِها لعوائل أغراب من أبناء الجاهِ والثروة، لا ينقطعون عن زيارةِ المنطقة في

أيامِ الصيف، حينها يُظهر الزورق كل ما لديه من إمكاناتِ بهرجةٍ وتبرّج: وسائدَ بيضاءَ على مقاعده الخشبيةِ التي تُحيط بحوضه من كلِّ جانب، مظلّةً قماشيةً بيضاء تغطّيه على امتداده، مرفوعةً بعمودَي خشبٍ في مقدّمته المدبّبة، ومؤخّرته العريضة. وبين هذه المهمّات ينصرف الزورقُ أحيانَ كثيرةً إلى عبثِنا، نحن المالكين، كباراً، شبّاناً وصبياناً، في سباحةٍ، لا تكادُ تنقطع طيلة النهار.

أشرتُ إلى "شارع أبي نؤاس" قائلاً:

ـ هل حدث أن جرّبتَ حياةَ "أبي نؤاس" الليلية. في هذه المقاهي المضاءة ليلاً على امتداده، والباراتِ التي لا تَبين بوضوحٍ خلفها. أستطيعُ أن أميّزَ إضاءتها الملوّنةَ الهادئة.

ـ مرّاتٍ معدودة. ليستْ كثيرةً تماماً. ودائماً ما تحدث بسببِ نشاط حزبي. أنت تعرف. اعتقدُ أنني أحمقٌ في مشاغلي الحزبية، كما يحلو لكَ أن تقول بينك وبين نفسكَ. أنا أعرف. نشاطنا الحزبي ارتبكَ بعد الثورة، أو الانقلاب، كما صرتُ أسمّيه، بعد أن دبّتْ في قناعةِ بعضٍ منا مُيُولٌ يسارية. أنت تعرف أية طبيعة حزبية لديّ.

ـ أعرفُ. تذكر حين رميتَ من يدي كتابَ "دع القلق وابدأ الحياة" إلى النهر، قائلاً بغضب "كيف يُمكن أن تُعاشَ حياةٌ بلا قلق." كنتُ أحببتُ ذلك حينها. أعتقد أنك أبعد ممّن أعرف عن الانتسابِ الحزبي، أو الانتساب لعقيدة.

ـ أعرف هذا أنا أيضاً، ولكن صداقاتي تُلزمني بذلك. لدي صداقاتٌ عزيزةٌ عليّ.

ـ صداقاتٌ من خارج محيطِكَ العائلي والمحلي. أبناءُ الطبقة الوسطى، ببيوتُهم العامرةُ أكثر فتنةً. لقد عرفتُ عدداً منهم عن طريقكَ. لا شكّ أن تأثيرَهم لا يُقاوَمُ، لباساً، ولياقةً، وتصرّفاً، ورفاهية.

ـ ولكنْ؛ لديّ صداقاتي من محيطي العائلي والمحلّي.

ـ نعم، تلتقي بهم في مقهى الطرف المتواضعة، أو في مكتبة الحسينية. وهي لقاءات بالمقارنة لا تُغذّي لديكَ توقّدَك العقلي، وحساسيّتكَ. أعرفُ أنهم، هم أيضاً، يَشغلهم الانتماءُ الحزبي، الديني أحياناً.

ـ ربّما هذا هو السبب. فأنا غير متديّن كما تعرف.

ـ أعرف. أنا الآخر غير متديّن. ولكنّ عدمَ تديّني وفّرَ لي مناعةً مضادّةً لأي انتماء. عدمُ تديّني ربّما قادني إلى ارتيابٍ حادٍّ من الحاضر. مدرّسُ العربيةِ في المتوسّطة، وكان نابهاً وطيّبَ القلب، يقول لي حين يطّلع على دفتر إنشائي: "إنك حين تكتبُ، كأنك تغطّي رأسَك ولغتَك بلحافٍ، يحجُبُ عنكما أيةَ إضاءة من الحياة المحيطة." كانت ملاحظتُه صحيحة، باستثناء جملة "الحياة المحيطة". كان أولى به أن يقول "الزمن الحاضر".

تجاوزنا منطقةَ "البيرمانية"، هكذا نسمّيها، وهي في حقيقتها ليستْ إلا بيوتاً داخل بيت أرضي واحد، يمتدّ من واجهةٍ عريضةٍ على النهر، ينفردُ بها بابٌ صغيرٌ واحد، حتّى حقلَ الباذجان المُظلَّلِ بحقلِ نخيل وراءه. تلك الواجهةُ الخلفية لها بابٌ صغير واحد أيضاً. عائلةٌ نمتْ عبر سنين، لا أعرف مداها، داخل هذا البيت الواحد. تتزاوج فيما بينها، وتتّسع أفرعُها بصمت. ولعلّي أذكرُ أني رأيتُ، لا أعرفُ كيف ومتى، مشهداً منها خاطفاً من الداخل. دروبٌ ترابية، تتخلّلها سواقٍ وسط مشاتلَ من نباتِ الغَرَب

والياس، لا تخلو من أناقة، لا تتوقفُ تفرّعاتُها باتّجاه بيوتٍ مستقلّة ببيبانها الصغيرة على الجانبين. مدينةٌ بالغة الصغرِ، والنعومةِ والحميمية.

بعدها تبدأُ حدودُ محلّتي "العبّاسيّة". تبدأ مع الشارع المعبّد إلى اليسار، تتلاحق البيوتُ الصغيرة على جانبه الأيمن، وبيتنا الخامس، في حين يمتدُّ على جانبه الأيسر حقلَ باذنجان، يُظلّله النخلُ، يتواصلُ إلى ما وراء "البيرمانية".

كاظم يعرف بالطبع أننا بلغنا المُفترق. قال لي:

ـ لمَ لا تواصل معي إلى مقهى فاضل. الجميعُ يعرفكَ هناك، ويرغب في لقائكَ. أنت تعرفُ ذلك.

ـ أعرفُ، ولكني جائع. إذا كنتَ جائعاً أنت أيضاً، فلنتناول العشاء معاً. لا يستغرقُ وقتُ تناولنا الطعامَ في البيتِ أكثر من نصف ساعة.

رائحةُ فوح التمن تشيعُ في هواء المحلّة في ساعة كهذه. الناسُ تطبخ عَشاءها مع غروب الشمس. معظمُ أهالي "العبّاسيّة"، في ساعةٍ كهذه، ترونهم يجلسون مثلَ طيورٍ غريبةٍ على مسنّاةِ النهر، يتأمّلون مجرى الماء: الأمواجُ الناعمة، بدأتْ تعكس الإضاءاتِ الملوّنة، وهي تُقبل غائمةً من شارع "أبي نؤاس"، مصحوبةً - أكثر الأحيان - بصوتٍ لا يتّضح لأمّ كلثوم، ولكن الناسَ تحفظه عن ظهرِ قلب، كما يقولون. يتأمّلون الأسماكَ الخفيّةَ تحت الأمواج، تتحرّك ضدّ التيّار. وحين تخِفُّ الرائحةُ أو تتلاشى يرى الجميعُ في ذلك إيذاناً بوقت العِشاء. يقفزون على أرجلهم بدشاديشهم، ويتوجّهون إلى بيوتهم. يُفرشُ بساطٌ من النايلون، وعليه تتوزّعُ صحونُ الطعام، مطبوخاً أو مقليّاً، والفجلُ الأبيضُ المستدقّ الأطراف، وضفائرُ البصلِ الخضراء،

والخضار. وحول البساط تتوزّع الوسائدُ الأرضية الخفيفة، وفوقها يتوزّع أفرادُ العائلة. شعرتُ أن رأسي ازدحم بكلِّ ذلك عن غير إرادة.

ـ إنني جائع حقّاً.

واستدرتُ إلى الجادّة المُعبّدة في يساري، فيما واصل كاظم طريقَه الممتدّ على حافة النهرِ الواسعِ باتجاه "جسر الجمهورية".

كانت أمّي وأختي مع عمّتي العمياء فوق المنادر القطنية على الأرض، يتحدّثْنَ بحماس، حول أمور تخصّ بعضَ الأقارب فيما يبدو. التفتتْ أمّي إليَّ ما إن رأتْني أدخل:

ـ التمن يتهدّر على الموقد. هل ستُغيّر ملابسَكَ؟

ـ أنا جائع يمّه. سأغيّر ملابسي، وآخذُ دُشّاً سريعاً. ولكنْ؛ أين بقية العائلة؟

ـ عشاؤهم اليوم عند عائلة زوجة أخيكَ، اتّفقوا على ذلك منذ البارحة.

فتحت أمّي المصباحَ المُثبتَ على حائط الغرفة الأمامية. النهار بدأ يُعتم، وما إن خرجتُ من غرفة الحمّام المطلّة على الحوش مباشرة، حتّى رأيتُ البساطَ، وقد تزاحمَ بصحون الطعام. فالعادةُ تقتضي صحنيْ تمن ومرقٍ لكل واحد. أما عمّتي؛ فقد أعدّت أختي لها صينيّتها الخاصة، ووضعتْها أمامها.

ـ فاطم، الصينيةُ أمامكِ. المرقُ شِجر. إنه بارد على المعدة.

ـ فيه البركة. أنا أحبُّ الشِجر، ولا يثقلُ عليَّ في الليل. قالت عمّتي.

أنا الآخر أحبُّ نبتةَ الكوسة. أحياناً أتناولها طازجةً، كما أتناول الخيار. تناولتُ الطعام بشهية، وقفزتُ أريد الذهاب إلى غرفتي، وبي رغبة أن أكتب. قالت أمّي:

ـ خلّيك معنا، حتّى ننتهي من الشاي. بعد الغرفة، ستقفز إلى السطح؛ لتقرأ. لم أرَكَ كفايةً هذه الأيام. هل عرفتَ أن زهير أخذه الحَرَسُ أوّلَ الصبح هذا اليوم؟

هل أرادتْ أمّي بهذا الخبر أن تُرغمني على البقاء بينهم؟ استدرتُ، وعدتُ إلى حيث "الكرويتة" الخشبية المستندة على الجدار.

ـ الحَرَسُ بالكاكي من أبناء "العبّاسيّة" أنفسهم. ما من غريب بينهم. كان عبّاس بن فاضل من بينهم. طمأنوه، وأخذوه ضاحكين. الله يساعد أُمّه.

ـ ولكنهم سبق أن أخذوه. كان تحت حماية مجيد. مجيد ادّعى ذلك. اليوم تحت حماية مَن؟

حطّت أختي استكانَ الشاي على مسند "الكرويته" إلى جانبي، ثمّ وزّعت البقيةَ على أمي وعمّتي الجالستين، كما كانتا، على "منادرهنّ" القطنية، وبين أصابعِ كلٍّ منهما سيجارةُ "المزبن" البيضاءُ النحيلةُ التي لم تشتعلْ بعد، فهي مُفضَّلة بعد استكان الشاي مباشرة. لم يصدمني الخبر، لا أعرفُ لماذا. صرتُ أتوقّع أشياء مثل هذه تحدث اليوم وغداً. مفرداتٌ جديدةٌ صارت تتزاحم على ألسنة أبناء "العبّاسيّة"، بالغة الغرابة، ولا تنسجمُ مع طباعهم. قبل أيام سمعتُ "حكّولي" يتحدّثُ مع "عبد علي" عن "خروتشيف أبو صماخ"، على حدّ تعبيره. يقول عنه إنه صارتْ له أربعةُ ألْسنةٍ هذه الأيام. "يتحدّثُ بصوتٍ مسموع عن حرب العصابات،

تصوّر! أعتقدُ أن هذا الزهير هو الذي يقف وراء تلقينه." فهمتُ أنه يعني "حسّون بن خضر"، الذي يتميّز برأسٍ كبير الحجم نسبياً. و"حگّولي"، العاطل عن العمل عن إرادة، يقتطعُ من مصروف العائلة؛ ليشتري صُحُفَه اليومية العديدة، ولا يبالي بولولةِ زوجته "طليعة" وراءه. يأتي بالصُّحُف كلَّ صباح ملء الحضن؛ ليجلسَ على مسنّاة النهر ويقرأ. كان موضعَ تندّرِ أبناء "العبّاسيّة"، بالرغم من أن لوثةَ السياسة مسّتْ لِحى الجميع.

قلتُ لأمّي بأني أريدُ أن أكتب. وقفتُ، واتّجهتُ إلى غرفة الواجهة. كان رأسي مثقلاً بفكرةٍ واحدةٍ، وأريد أن أضعَها على الورق. كان مُثقلاً بهذه الفكرة منذ فترة، ولكني عادةً ما أدعُ الفكرةَ تنضج لأيام. لو باشرتُها من مَطلعِها، لاستعصتْ عليّ. مع أني أعرفُ أن مباشرة الكتابة كفيلةٌ باستنهاض الفكرة، وتطويرها، ولكني لا أجرؤ. الفكرة بدأت تستحوذُ على رأسي منذ أيام. كان الأستاذ "إبراهيم الممثّل" وعائلتُه على علاقةٍ حميمة مع عائلتنا. حدث هذا على يد أخي المتزوّج عامر. كان صديق "الأستاذ إبراهيم"، وعبر علاقتهما الشخصية نضجتْ علاقةُ العائلتين. "الأستاذ إبراهيم" مدرّس في المهنة، ولكنه سبق أن مارس التمثيل، وكسب من ذلك سمعةً، لمْ تُغنِه إلا باللقبِ الذي لصق باسمه. رجلٌ بالغ الأدب، كان في زيارتنا هو والعائلة قبل أيام. وعبر أحاديثنا، عرف بأني مولعٌ بالقراءة، وبكُتُبِ التراثِ العربي خاصّة. فمنحه هذا حيويةً في الانصراف للحديث معي فترة طويلة:

ـ كنتُ أقرأ أكثر ممّا أنا عليه هذه الأيام. الهمّةُ الآن محبطة، والأسباب كثيرة. لو كنتُ مولعاً مثلكَ بكُتُب التراث، لما أصابني هذا الإحباط، فهي تأخذكَ بعيداً، أفترض هذا. المشكلة أني كنتُ مولعاً بالقصص

والروايات، وتكوّنت لديَّ بسبب هذا الولع مجموعةٌ مختارةٌ من الروايات العالمية. ولكن المقلقَ، في هذه المرحلة الصعبة التي تعرفها، أن أكثريةَ رواياتي روسية. ربمّا تعرف تولستوي، ودستويفسكي، وگوگول، وليرمنتوف، وتشيخوف. هناك كتّاب عالميون آخرون. المشكلة التي واجهتْني أن هذه الكُتُب جميعها، أو معظمها صادرة عن "دار اليقظة" في دمشق، الأمر الذي جعلني أتشكّك بتوجّه الدار. أو أقول لك بصراحة أكثر، جعلني أتخوّف من تشكّك الآخرين بالدار، ومن ثمّ؛ بي. قلتُ مع نفسي إن قراءةَ هؤلاء ورطة، في ظروفنا الآن خاصة. لملمتُ كُتُبَهم، ووضعتُها في صندوقين، دسَستُهما تحت ركام خشبٍ وأنقاضِ سِلالٍ على السطح. لم أحتملْ فكرةَ دَفْنها، أو إحراقها. صرتُ أُؤجّل الفكرةَ يوماً بعد يوم. تعال غداً بعد قيلولةِ الظهيرة لشرب الشاي معي. بعدها آخذكَ إلى السطح، ولكَ أن تختار من الروايات ما تشاء. الرواية تراثٌ أيضاً.

كان في جملته الأخيرة أكثرُ من محفّز. الروايةُ تراثٌ أيضاً!

ـ فكرة رائعة. أشكركَ على هذا العرض.

في اليوم التالي، زرتُه بعد قيلولةِ الظهير. كان في انتظاري، هو والعائلة؛ وإبريقُ الشاي المعدني على نارِ موقدٍ هادئة. بادرتُه:

ـ الرواياتُ تراثٌ أيضاً.

ـ أعجبتْك الجملةُ، كما يبدو.

ـ بالتأكيد. الروايةُ كما قلتَ، حتّى لو استخدمتَ في أفعالها صيغة الحاضر، إنما تُقبل من الذاكرة. لقد أثارتْني الفكرة. سأشرع في قراءة الرواية إذنْ. والفضل سيعود لكَ في جملته.

قلتُ الجملةَ الأخيرة بدافع اللياقة. ولكن الحقيقةَ أن "مدينة النحاس" هاجمتْني تلك اللحظة عن غيرِ توقّع. "الصاعدُ إليها، إذا أشرف على الحائط صفّق.."، لكي يسمع صدىً لتصفيقه؟! وهل إنه لم يسمع شيئاً من هذا، فرمى بنفسه؟! لحظةٌ خطفَ فيها التساؤلُ، وتلاشى.

شربنا الشاي مع الكعك. ثمّ توجّهنا إلى السطح. درجاتُ السّلّم مبلّطةٌ بالسيراميك، تنتهي بفسحةٍ صغيرةٍ مسقوفة، تمنع من تسرّبِ ضوءِ الشمس إلى داخل البيت. ومن بابٍ حديديّ خرجنا إلى السطح. ما تزال الشمسُ حادّة، فما من ظلّ على السطح. توجّهنا إلى كوْمةِ الأخشاب والسّلال، وبخفّةِ يدِ العارفِ، أخرج "الأستاذ إبراهيم" الصندوقين:

ـ افتحْ عزيزي ، وانتخبْ على هواكَ. وإذا أردتَ نصيحتي، فابدأ مع الروس الذين ذكرتُ لكَ أسماءهم البارحة. أسماءٌ كهذه صارت هذه الأيام، بفعل الجهل والضغينة، مثل العقارب. ولكنْ؛ أرجوك أن تعتبرَ أمرَ الكُتُب سرّاً بيننا. أنت ابن المنطقة، ولكني، رغم سمعتي، أظلّ غريباً كما تعرف. ولعلّ سمعتي هذه لم تعدْ لصالحي هذه الأيام.

ـ هذا أمرٌ أتفهّمه، فاطمئنّ. ولعلّك تبالغ أيضاً في الحذر. الجميعُ يعرف بأني قارئُ كُتُب، لا تمتّ للحاضر بصلة.

ـ ولكنها ستمتُّ الآن بصلة.

ـ الروايةُ تراثٌ أيضاً. ألمْ نتّفق على ذلك؟!

حملتُ خمسةَ كُتُب في كيس نايلون، ووعدتُه أن البقيةَ ممّا أنتخب سأنقلها بالأقساط.

منذُ قرابةَ خمسةِ أيام، وأنا أقرأ الرواية، في ساعاتِ القراءة المفضّلة لديّ، في فراشي على السطح. حين تغيبُ الشمس، تكون مصابيحُ الطرق قد أضاءت. كان سريري يكاد يكون على حافّةِ السطح المسوّرة، من جهة الشارع. ومصباحُ عمود الكهرباء لا يبعد عنه أكثر من مترين. كنتُ أجد في إضاءته أكثر من كافية لمتابعة قراءتي. هواءُ أوّل المساء كان مُنعشاً إلى حدّ بعيد، تغذّيه بالسِّحْر الإضاءاتُ التي تتلألأ على سطح ماء دجلة، تعيدُ كالأصداء اللألاءَ الملوّنةَ لمقاهي وخمّارات "شارع أبي نؤاس"، على الضفاف الأخرى. وهدأةُ أوّل المساء مشوبةٌ برقّةِ أصداءِ موسيقى وغناءٍ بعيدين. أُسند الوسادةَ على رأس السرير، وأستريح بظهري عليها وأقرأ، حتّى ينتصف الليل. ولا يُربك قراءتي مجيء العائلة: أمّي، أختي، أخي وزوجته وابنتيه، رُغم الرغبة الناشطةِ للحديث التي تنتابهم، بفعل عذوبة الليل. اللحظاتُ التي أتوقّف فيها عن القراءة، وأُعيد الوسادةَ إلى وضعها، ثمّ أريح الرأسَ عليها، وأنصرفُ إلى تأمّل النجوم، تكاد تكون لحظاتٍ غائمةً، لا تنتسب إلى زمن؛ لأن الغرق في النوم موصولٌ بها، إلى حين أستيقظ على لسْعة شمس الصباح المبكّرة. إنها لحظاتٌ لا امتداد فيها، ولا فواصل. تُشبه لحظةَ نوم المُخدِّر المنتزعة من زمن الساعة. في الصباح حين أستيقظ، أجد استحالةً في تذكّر تراتب تلك اللحظات التي توصل إلى النوم. ولكني، على عكس ذلك، أستيقظ وقد التحمتْ، وتناسلت الأفكارُ التي تولّدت لديّ من الكتاب الذي كنتُ أقرأ. مع الرواية في القراءات المتأخّرة، كان حصادي أكثر غنىً بالتأكيد، وأقلّ تجريداً. هناك شبكةٌ من الشخوص، والأحداث، والتعارضاتِ الإنسانية في العواطف والأفكار.

الرواية التي أخذتُها معي إلى السطح كانت "أنّا كارانينا" لتولستوي. ولكني أرفقتُها بكتاب "أجنحة جبرائيل" للسُهرْوردي، من باب الاحتياط.

فإذا لم تصلح تلك، ألجأ إلى هذا. أو على الأقل، ألجأ إلى [illegible] بسماع صوتي، وأنا أقرأ؛ لأني أعرف أن قراءة الرواية ستكون صامتة. الأمر الذي لمْ أعتده.

منذ ذلك اليوم، وفكرة أن "الروايةَ تراثٌ أيضاً" تجد أرضىً خصبةً في داخلي. حين تركتُ أمّي وأختي وعمّتي، في جلستهم الأرضية، تحت شجرة التوت، ودخلتُ غرفةَ الواجهة، كانت تحدوني رغبةٌ ملحّةٌ للكتابة عن ذلك. تناولتُ الدفترَ من داخل خزانة الكُتُب، وجلستُ على "الكرويتة" الخشبية، وعليها فرشة مبطّنة، وأسندتُه على فخذيّ المطويّين على بعض، وحاولتُ أن أبدأ:

"ليست الرواية تراثاً وحدها. كلُّ كتابٍ تراث. لا أذكر أين قرأتُ شيئاً يعزّز هذا الرأي، يقول بأن "في الكُتُب تتجلّى روحُ الزمن الماضي كله: الصوتُ المنطوقُ والمسموعُ للماضي، في حين يتلاشى جسدُ ذاك الماضي وجوهره المادّي جميعاً مثل الحلم." كل كتاب بين يدي يتطلّب مني استدارةً إلى الخلف. إنه صوتُ الماضي الذي ليس له من صوتٍ مسموعٍ. الأمر الذي يحفّزني على استعادة صوته على لساني أنا. أن أقرأ بصوت أسمعه في أذني. الماضي هو خزين الكائن الإنساني الذي يغذّي لديه قوّةَ أن يواصلَ العيش. يفيضُ عليه بكل الأفكار التي اعتملتْ في تجربة الإنسان، ولا يُفرد له فكرةً واحدة منتخبة. الحاضرُ الذي لا يتّسم بسعةِ الأفق يفعل ذلك. يثير الحماس باتّجاه فكرةٍ واحدة، عادةً ما يزوّدُه بها المستقبل، الذي هو تجريدٌ في الغيب. الذي هو بُعدٌ للزمن غير مبالٍ، وغير عابئٍ بمصير الكائن. إنني أقرأ بحكم حنين غريزي في داخلي لهذا الماضي. "أنّا كارنينا" امرأةٌ ليست جديدةً عليّ. امرأةٌ عرفتُها في أشكال من النساء شتّى، ولكنها

مَنسية. جاء تولستوي؛ ليعيد إليّ نباهتي، ويجعلني أكثر تركيزاً، ومن ثمّ؛ أكثر وعياً. جاء ليعرّفني عليها بصورة، لا يُحسنها أحدٌ سواه.

الكتابُ حلمٌ دفينٌ في داخلي، راكمتْ عناصرَه العصورُ. جاء أحدٌ لا يفتقد إلى النباهة وفرط الإحساس؛ ليعيد تشكيله، ويبعثه من جديد. ولذلك أشعر أن الكتاب الذي أقرؤه، إنما أكتشف فيه نفسي. أشعر بعدها أنه ينتسب إليّ، أنني مؤلّفه، أو هكذا يمكن أن أكون. في حين يبدو الحاضرُ دائماً مجرّدَ لحظة، تصل بين الحقيقة والوَهْم. بين الماضي والمستقبل."

توقّفتُ؛ لأني انتبهتُ إلى أمّي، وقد بدتْ ظلاً يتطلّع إليّ من وراء النافذة المطلّة على باحة البيت. كانت بلباسها الرماديّ الغامق، وفوطتِها السوداء الملتفّة حول الرأس حتّى تغطّي الرقبة والصدر، أشبهَ بملاكٍ غامض، لا يتّضح للعين، ينتشر في كل أنحاء البيت، يرقب ويتأمّل. ابتسمتُ لها، ولكنها لم تكن تراني بوضوحٍ على ما أعتقد؛ لأن النافذةَ مغطاةٌ بشَبك ناعم، يمنع الذباب والبعوض من اقتحام الغرفة. خاطبتُها:

ـ يمّه، هل خدّرتِ شاياً مرّة أخرى. إذا حدث وفعلتِ، فأحتاج استكان شاي ثقيلاً.

غادرتْ، وهي تقول وكأنها تحدّث نفسها "سأعمل شاياً الآن. أنا أيضاً أحتاج إلى استكان" ثمّ بصوت أعلى: "هل ترغب بكعك مع الشاي؟"

ـ يرحم والديك.

٣

حين رجعتُ من الكُلّيّة في اليوم التالي، كان مصطفى يقف على ركن الاستدارة من الشارع العامّ إلى الشارع الفرعي الذي يقود إلى محلّتنا. بادرني حين صرتُ على مقربةٍ منه بالقول، وعلى فمه ابتسامةٌ متردّدة:

ـ ألم تعطّل الكُلّيّة؟ هناك دعوةٌ لمظاهرات اليوم، ستّتجه إلى ساحة التحرير. في ساحة التحرير تمّ إعدامُ مجموعةٍ من جنود فجر هذا اليوم، قيل إنهم خَوَنَة أو جواسيس، أو شيء ربمّا آخر. الناس بدأتْ تتّجه إلى هناك. حاولتُ أنا، ولكني لم أجرؤ على عبور الجسر. قيل لي إن ألسنةَ المعلّقين بالحبال تخرج من أفواههم ملحيةً مُزرقّة. تخيّلتُ المشهدَ يمُرضني، لو ذهبتُ. ما أزال أرتجف، تعرف؟ أنا إنسان ركيكُ الصحّة وسريعُ الخوف. هذه مشكلتي دائماً.

انتبهتُ إلى صُفرةٍ في وجهه، وارتجافةٍ خفيّةٍ في كفّيه.

ـ بدأنا الدراسة صباحاً دون مشكلة. بعد الدرس الثاني، سألنا العميد أن نترك الدرس. سمعتُ من الطَّلَبَة الخبرَ الذي أسمعه منكَ الآن. لا تعبرْ الجسر. أنا الآخر لن أعبرَه. لا تتحدّثْ مع الآخرين عن ذلك. طبعاً سيكون المشهدُ متعباً للأعصاب. أنتَ لستَ ضعيفاً، ولا مريضاً. تعال معي إلى البيت، سنتحدّث هناك على راحتنا.

وخطونا معاً باتّجاه البيت. ظلّ مصطفى صامتاً، وكأنه اقترف ذنباً، وينتظر عقاباً من قَدَر مجهول. من مقهى "عليان" خرج إلينا "فاضل أبو علُص" حيوياً، صاخبَ الصوت على عادته:

ـ ها أصدقائي. لا دراسةٌ، ولا هم يحزنون؟ هذي الأيام عطل، ظَهراً وقَفا. عبدون لم يُضاعف "الدوندرمة" في عربانته عبثاً. لقد سبقكم قبلَ قليل مهرولاً وراءها إلى ساحة التحرير. خير من الله.

استجبنا لصخبه ضاحكين، مع أني ميّزتُ خيطاً من سخرية في كلامه. "فاضل أبو علُص" لا يعرف معنىً للانكسار والأسى في حياته. حميمٌ في محبّته للآخرين، ولهجتُه تبدو في أحيان كثيرة تهريجية، ولكنها تُخفي معنىً مُبهماً مُبطّناً بسخرية ما. ولا أحد يسأله عمّا يعني. إنهم يتركون جملته المُلغزةَ طمعاً بمتابعة الجملة التي تليها.

تركناه وراءنا يواصل حديثه مع بعض روّاد المقهى. أخذنا فرعنا الثاني المعبّدَ على اليسار، ولم نلتقِ أحداً، باستثناء "كَسْكين"، أمّ محمود، بلباسها الرمادي وعباءتها السوداء ، وكانت تتحدّثُ مع نفسها بصوت مسموع كعادتها، وهي تدخل بيتها. بلغنا الفسحةَ على يمين الشارع المفتوحةِ على حقل الباذنجان والنخيل. كان ثلاثةٌ من الشبّان ممّن نعرف، يقفون في قلب الفسحة يدردشون. نظروا إلينا، وبعد استجابتهم لتحيّتنا، عادوا إلى الدردشة فيما بينهم. حين وصلنا البيتَ، دخلتُ وحدي، ثمّ سرعان ما عدتُ إلى صاحبي، ودعوتُه للدخول.

سلّم مصطفى على أمّي، التي كانت مشغولةً بمراقبة القدر على النار، ثمّ تبعني إلى غرفةِ الواجهة. جلسنا سويةً على "الكرويتة" الخشبية، وخزانةُ كُتُبي قبالتنا تماماً. قال، وهو منحني الرأس قليلاً:

ـ الأشياء تحدث متلاحقة. كلُّ يوم حَدَثٌ مُفزعٌ جديد. لا أعرف كيف يقاوم الناس هذه الخضّات التي تُتلف الأعصاب؟! أبي أخبر أمّي صباح هذا اليوم بأن الكثيرَ من الناس المتّهمين سياسياً قد اقتيدوا من بيوتهم إلى أماكن مجهولة. هل سمعتَ شيئاً عن "زهير"، المسكين، مجيد وأخيه، وعدد من شباب المنطقة لبسوا بدلات الحَرَس، واتّخذوا مقرّاً من أحد الدكاكين التي برأس الجسر. قال أبي إنهم يحملون أسلحةً، لم يتدرّبوا عليها. أمرٌ في غاية الخطورة. تعرف؟ إنهم حاولوا إقناعي قبل يومين بأن أسجّل. قلتُ لهم بأني مريضٌ، ولا أصلح لشيء. وهذه حقيقة.

ـ أنتَ لستَ مريضاً. ولكنكَ لا تريد أن ترتدي بدلة الكاكي، وتحمل سلاحاً. ببساطة.

ـ هذا كلامٌ، لا أجرؤ عليه.

ـ ولا أنا.

قلتُ هذا ضاحكاً، ثمّ سألتُه:

ـ هل حدّثوك عن مبادئ؟

ـ هل تريد مجيد أن يتحدّث عن مبادئ في السياسة؟ إنه لا يُحسن القراءة والكتابة. أنتَ تعرف.

من النافذة التي تُطلّ على فسحة البيت، بدت هيئة أمّي واضحة. ألصقتْ وجهها على شبكة المعدنية للشبّاك، وسألتْ بصوت خفيض، وكأنها تُلقي سرّاً:

ـ تعال أمّي؛ لتحمل صينية الأكل. الغَداءُ جاهز.

قفزتُ إلى خارج الغرفة، ثمّ عدتُ بصينية، عليها صحنا رزّ، وصحنا مَرَق الفاصوليا اليابسة. ومعها قرصةُ خبز التنّور، وصحنُ فجل أبيض، وبصل. وضعتُ الصينيةَ بيننا على الكرويتة، وبدأنا نأكل بشهية واضحة. كان وجه مصطفى المنحني قليلاً على الطعام حزيناً. وقد أضفى عليه حزنُه جمالاً، لم ألحظه من قبل. لعلّه حزن جميلٌ، أكثر منه جمالاً حزيناً. ولذلك بدا لي تأثيرُه مفاجئاً. كان يأكل برقّة، وبطء، لا أُحسنهما. ينقلُ المَرَقَ بملعقة الأكل، يُقرّبه من حافّة صحن الرّزّ، ثمّ يسكبه كَمَن يروي تربةً بماء. لا أعرفُ لمَ تصوّرتُه يخرج إليّ من بين دفّتيْ كتاب. "في الكُتُب تتجلّى روح الزمن الماضي..". يخرج، ويجلس معي؛ ليأكل. وسيغادرني بعد الأكل، ويتلاشى. يحلو لي، وأنا مستمتعٌ بمذاق الطعام، أن أنسبَ مصطفى إلى الزمن الماضي. ويحلو لي أن أرى الحاضرَ في هيئة مجيد، الذي لا يُحسن القراءة والكتابة، ببدلة الكاكي والسلاح المعدن. وبغفلةٍ عن نفسي، قلتُ بصوت لا يخلو من توتّر:

ـ لا، لستُ معاصراً.

رفع مصطفى عينيه الواسعتين الرطبتين جافلاً:

ـ تُحدّثني؟ لمْ أفهمْ جملتَكَ.

ـ كنتُ أتحدّثُ مع نفسي بصوتٍ مسموع. هذا يحدث معي - فقط - مع الكتاب حين أقرأ. وحدث الآن؛ لأنني أقرأ. لأنني أقرؤكَ، مصطفى.

وضع مصطفى على فمه ابتسامةً مُشبعةً بالاستفهام. واصلتُ أنا:

ـ هذه مرحلةٌ، لا ننتسبُ لها. لا أنتَ، ولا أنا. لم نكنْ ننتسبُ للمرحلة التي سبقتْها، ولن ننتسبَ للمرحلة التي ستليها. لحظةُ الحاضر تطلعُ علينا كحافّة سكّين. تجرحُنا، وتتلاشى. هذا ما يحدث، وسيتواصل ما دمنا أحياء.

ـ أفهمكَ الآن، وأوافقكَ. بهذا المعنى، أختي ملاذ تنتسب إلى الماضي. إنها تحبّ القراءة، والكتاب لا يفارق يدها. هل التقيتَها سابقاً؟ لا أعتقد. هي تعرفكَ، وتقول إنها رأتْكَ أكثر من مرّة. من بعيد على ما أعتقد. لقد قطعتْ دراستَها بعد الثالث متوسّط. تقول إنها تنتظر؛ لتختار واحداً من هذه المعاهد العملية. ملاذ ليست عملية، كما أعتقد.

ـ إنها أصغر منكَ، على ما يبدو؟

ـ نعم، بسنتين، أو أقلّ. لا أتذكّر تاريخ ميلادها.

ـ لقد أصبحنا ثلاثةً، إذنْ؛ نحن الذين لا ننتسب للحاضر. دعني أتعرّف عليها. سأسجّل اسمها في المكتبة، وأستعيرُ لها الكُتُب التي تقترحها. كُتُبُ التراث - على الأغلب - تحتل أغلبَ رفوف المكتبة. هناك كُتُبٌ حديثة كثيرة، أيضاً.

ـ سأفعل في أقرب فرصة. هذه مرحلةٌ، لا ننتسب لها، كما قلتَ. لا أنتَ، ولا أنا، ولا ملاذ.

ـ لم يبقَ لنا إلا أن نشحذَ ذائقتنا مع لقمة الطعام، ونأكل بشهية.

ضحكنا سوية.

بعد أن شربنا الشاي الذي جاءت به أمّي، على إثر وجبة الغداء،

غادرني مصطفى. وضعتُ وسادةً على طرف الكرويتة، جئتُ بكتاب "مروج الذهب" بين يديّ، ثمّ تمدّدت راغباً أن أطّلعَ على مكان خبر "مدينة النحاس" فيه. أحدّدُ الموقعَ بدقّة، الصفحة، والخبرَ الذي قبله، والخبرَ الذي يليه، والفصلَ الذي ينتسب إليه؛ لكي أتحاشى تقليبَ صفحات الطبعةِ الحجرية في المكتبة دون طائل. حين سجّلتُ ما أحتاج إليه على ورقة منفصلة، أغلقتُ الكتاب الثقيل، وأعدتُهُ إلى مكانه بين الكُتُب في خزانتي. رجعتُ إلى المقعد الطويل، وأرحْتُ رأسي على الوسادة. كانت "مدينةُ النحاس" تلوح من خلال شبك النافذة المعتم قليلاً، بسبب شجرة التوت التي وراءه. شبحُ أمّي يخترق الظلالَ، وبين الظلالِ تنبضُ التماعاتٌ شاحبة بين حين وآخر، تُقبل من أسوار النحاس الممتدّة، وأبراجه العالية. تنبضُ مع نبضات القلب، مرئيةً ومسموعةً في آن. كنتُ أغرق في قيلولة عميقة.

نمتُ قرابةَ ساعة ونصف، قالت لي أمّي ذلك حين أيقظتْني. الشمسُ ما تزال تملأ فسحة البيت في الوسط، ولكنها شمس ناعسة. عمّتي على مقعدها الأرضي، وأخي وزوجته وأختي على المقعد الطويل، تحت ظلّ شجرة التوت، في حديث لا يخلو من حماس. لم أتبيّنه إلا حين انضممتُ إليهم. لحقتْني أمّي، وأخذتْ مكانها على مقعدها الأرضي إلى جانبِ عمّتي. مدّتْ يدَها إلى صحن "المزبّن"، وأشعلتْ سيجارتها. على مقربةٍ منها، كان قوري الشاي فوق نار هادئة، يُصدرُ أنفاساً ذات رائحة، خُصَّ بها وقتُ العصرية وحده، ولا يُقرن برائحته صباحاً. في الصباح، تُفسد امتيازه هذا رائحةُ الحليب والبيض. كان الحديثُ كما توقّعتُه حول ما يجري هذه الأيام، في محلّة "العبّاسيّة"، وفي بغداد عامّة. كان أخي يتحدّث حين انضممتُ إليهم. قال مواصلاً:

ـ زحمةُ الناس في "ساحة التحرير"، منذ صباح هذا اليوم لا تُصدّق. رأيتُ عبدون هناك مع عربته، لا يكاد يلحق الطلبات على الدوندرمة المطعّمة بدموع عيونه الشُّرح.

قاطعه الجميع بضحكة عالية. واصل، وهو يشاركُهم الضحك:

ـ لقد فتح الله على بائعي اللبلبي، وسندويتشات البيض والعنبة، والكباب المقلي باباً للرزق واسعاً. كانت الناس تأكل محتفيةً بالجثث معلّقةً على مقربة منها وسط الساحة.

ـ لا بد أنها كانت تأكلُ بهستيريا.

علّقتُ أنا بتوتّر ظاهر.

ـ لا أعرف ما تعني، ولكنْ؛ هذا الذي رأيتُه. كثيرٌ من الناس كانوا يفِدون إلى الساحة، ولكنهم ما إن يروا المشهدَ حتّى يولّوا راجعين. أنا قاومتُ قليلاً، تعرف. كنتُ أرغب أن أرى بأمّ عيني واقعَ القتلى المعلّقين. ولكني أخفقتُ في المقاومة بعد دقائق. تناولتُ "جسر الجمهورية" بساقيَّ كالهارب. عجيبةٌ قسوة ابن آدم!

ـ وأعجبُ منها حاجةُ غريرته إلى هذه القسوة.

علّقتُ أنا، وفي يدي استكان الشاي. ثمّ سألتُ أخي:

ـ هل سمعتَ أخباراً عن "زهير"؟ أمّي تقول إنها سمعتْ بكاءً في بيتهم. سمعتْه من هنا؛ لأن المسافة بيننا لا يحجبها إلا جدار.

ـ "زهير" كان يفعل قبل سنتين ما يفعله الأخوان اليوم. لا تعرف على

مَن تعطف. ما يحدث الآن في "ساحة التحرير" يجعلني أحسّ أن كلَّ شيء ممكن.

وقفتُ، ما إن أكملتُ الشاي، ثمّ اتّجهتُ إلى الغرفة. أخذتُ الورقةَ التي سجّلتُ عليها ما نقلتُه من كتاب "المروج"، وضعتُها في جيب البنطلون، وغادرتُ البيت.

أخذتُ كعادتي الطريقَ المحاذي للنهر. توقّفتُ قليلاً عند واجهة بيت "البيرمانية". كان البابُ الصغير مفتوحاً، بصورة تمكّنني من إلقاء نظرةٍ سريعة على واجهاتِ البيوت الصغيرة الداخلية، وعلى الدروب الترابية المطعّمة بنبات الغَرَب والياس في الساحة الوسطى. لم أستطع رؤيةَ الحدود التي ينتهي عندها البيتُ من الجانب الآخر. مدينةٌ صغيرة، بُنيت على مزاجٍ، لا بدّ أنه يستعصي على مزاجِ الناس هذه الأيام. شجرةُ صنوبر محكمة النظام، عَصية على التطعيم بأيّ نبات دخيل. تساءلتُ "هل ترى اقتحمتْها السياسة؟ أم هي بمناعةٍ كافية؟". واصلتُ السير، وتداعيات رأسي لم تتوقّف: "حيث تحيا، يا ابن آدم، ثمّة "مدينة نحاس" تنتصب فجأة على مقربة منكَ، مُغويةً أكثر منها مُهدّدة. ترتقي جدارها عن غير إرادة، أو وعي. تصفّق لها مُهلّلاً، ثمّ ترمي بنفسكَ، ولا ترجع آخر الدهر." تداعيات كهذه صارت مألوفة لديّ، بالرغم من أنني لم أستطع أن أمسك بنقاط التماس بين مدينة "البيرمانية"، و"مدينة النحاس" هذه. ما أسهل أن ينفرطَ عِقدُ المنطق! همستُ بذلك لنفسي، وكأني أهمسه في أذن أحد، يغذُّ السيرَ إلى جواري. موجةُ أسى جاءتْني، في هيئة نسمة هواء، من جانب النهر، أنعشتْ بي العودةَ إلى خطواتي على تراب الجادّة الترابية. ما أيسر أن ينفرطَ عِقدُ المنطق، المنظومُ كحبّاتِ اللؤلؤ! ما أيسر

أن تخرجَ بخطواتك ذاتها عن جادّةِ الحاضر، إلى جادّةٍ لا تنتسبُ لزمن! صورةُ "صالح الأطرش" بدشداشته البيضاء الملحية، وهو يُقبل بخطواتٍ بطيئةٍ باتّجاهي، انتشلتْني من تداعياتي. قلتُ، وأنا أرفع ساعدي اليمين:

ـ السلام عليكم، عمّي صالح.

ـ وعليكم السلام.

أجاب بصوتٍ أجشّ، دون أن يلتفتَ إليّ. أعرفُ أنه لم يسمعْني، بل استلم تحيّتي من إشارة يدي. إنه أحد أفرادُ عائلة "البيرمانية"، من الجيل الأوّل. ولقد حاك أهالي "العبّاسيّة" حوله حكاياتٍ ضاحكة، بسبب صممه.

وصلتُ "بيت الدامرجي" على اليمين، و"حديقة الدامرجي" على اليسار، وهي تنتصبُ عامرةً على قاعدةٍ من الإسمنت تُطلّ مباشرةً على النهر، وإلى جانبها شممْتُ رائحةَ البانزين المحترق والزيت لماكنة ضخّ الماء. كانت هذه الماكنة، وقد أحاطها بناءٌ صغيرٌ من حجرٍ، يصونها من الأمطار والريح، تُزوِّد كل مزارع المنطقة الموزّعةِ في رُقعٍ من الأرض عدّة، بالماء من دجلة. قصورٌ عديدة، أجهل ساكنيها، تحتلُّ بقيةَ الطريق قبل أن تنقطعَ عند مشارفِ المسجد الحسيني.

قبل أن أدخل "الحسينية"، اشتريتُ زجاجة كوكا باردة من الدكّان في مبناها العالي الجدران، وفي المكتبة، فكّرتُ أن أنصرف إلى طبعة "المروج" الحجرية التي ما تزال على الطاولة، قبل أن يُقبل زوّارُ الاستعارة والأصدقاء، فأنشغلُ معهم عنها. كانت قُصاصةُ الورق التي تحمل اسمَ الرجل الكهل على الطاولة أيضاً. تناولتُ المجلّدَ الأوّل، جلستُ على الكرسي، ووضعتُه في حضني، وبدأتُ أقلّبُ الصفحات، وبين أصابع يدي اليسرى، أمسكتُ

بالورقة التي أمليتُها في البيت كدليل. كانت فكرةُ أن أطّلعَ على "مدينة النحاس" في كل طبعة من كتاب "المروج" تقع يدي عليه، وأتحقّق من هوامشها، إذا ما توفّرت، قد استحوذتْ عليّ تماماً، منذ قرأتُها أوّل مرّة، وأنا في غرفة البيت، جالساً على خزانة الكُتُب. كنتُ أتذكّرُ ذلك بوضوح. لا يخلو الأمرُ من عَبَث صبيان، أُحسُّ ذلك. وأحسُّ أيضاً أن وراءَ حرصي ضرورةٌ ما مُلحّة دفينةٌ في داخلي. ضرورةٌ تشبه غريزةَ الأكل أو الجنس. أشعرُ أني أعبثُ؛ لأني أعجزُ عنْ فَهْم الحياة، وحياتي الشخصية بصورة خاصة. وأشعرُ بإيعازات الضرورة؛ لأني أريد معنى. تذكّرتُ كاظم، في انتسابه الحزبي من أجل معنى، أي معنى، وبين حرصه على القلق أيضاً. هل أشبهه؟!

لم يكن الدليلُ على الورقة التي أحملها يُسعفني كفاية. فهذه الطبعة الحجرية تكاد تكون سوداءَ بفعل أحرفِ طباعةٍ بدائية، وتقاربٍ بين الكلمات والأسطر. بلغتُ الفصل، وبالرغم من أني قدّرتُ المسافةَ التي تفصل عنوانَ الفصل عن الخبر، إلا أن المشكلةَ، كما اتّضحتْ لي، تكمُنُ في تتابع الأخبار، كما أتذكّرها في النسخة التي لديّ. أسِفتُ لأني لم أحملْ نسختي معي إلى المكتبة؛ لكنتُ تابعتُ الأخبار بين النسختين خبراً خبراً. إلا أن الأمرَ لم يُعطّل لديَّ مسعايَ في تقليب الصفحات بتأنٍّ، ومتابعةِ الخبر، بسبّابةِ اليد اليمنى. بعد تقليب قرابة سبعين أو ثمانين صفحةً، وقعتُ على الخبر الذي يسبق خبرَ "مدينة النحاس"، تماماً كما دوّنتُه على الورقة. هذه فائدةٌ حاسمةٌ من الدليل الذي نظّمتُه على الورقة، فأخذتُ نَفَساً، واسترخيتُ. تطلّعتُ إلى رفوف الكُتُب السوداء تغطّي الجدران، وكأني أنتسب إليها عن رغبة؛ كي أتهيّأ. قلبتُ الصفحة ؛كيْ تقع عيني على الحروف والكلمات التي أحفظها عن ظهر قلب. ولكني فوجئتُ بصفحةٍ فارغة ملوّثةٍ بحبرِ طباعة، كما بدا لي. بصفحةٍ، انتُزِعَ اضطرابٌ ما كلَّ الأسطر لحظةَ الطباعة، إلا بقايا

أحرفٍ وكلماتٍ، لا تصلح للقراءة. في الصفحة التالية وجدتُ الخبر الذي يلي خبر "مدينة النحاس"، والذي نسختُه كاملاً على الورقة بين يدي.

تركتُ الكتاب مفتوحاً عند صفحةِ الخبر المُنتزَع على الطاولة، وبقيتُ على الكرسي فاغرَ الفم. قفزتُ، وتناولتُ ورقةَ الرجل الكهل، وحدّقتُ فيها رغبةً في أن أجدَ أيةَ علاقة بين رسمِ الأحرفِ الشائهة، وبين البقايا المتناثرة من أحرفٍ وكلماتِ "مدينة النحاس". قرّبتُ الورقةَ من الصفحة، ورحتُ أقارن كما يفعل الباحث المحقّق، ولكنْ؛ عبثاً. فالصفحةُ شائهةٌ منذ زمنِ طباعتها قبل أكثر من مئة سنة، ربّما. الاسم الثلاثي على الورقة مكتوبٌ بقلم حبر أسود، ولكنْ؛ بصورةٍ خيطيةٍ، لم تتركْ مجالاً للاجتهاد. حاولتُ أن أستعيدَ وجه وهيئةَ الرجل الكهل، فجاءني غائماً تماماً. أحسستُ أن ثمّةَ علاقة بين الخبر الشائه في الصفحة وبين الهيئةِ الغائمةِ للرجل الكهل. ولكني رجعتُ إلى العقل، فعزوتُ هذا إلى ضربٍ من الوسوسةِ، بسببِ ردّةِ الفعل. ولكنْ؛ ألا تشحذُ الصدماتُ الحواسَّ، وتوقظُ الرؤى في عقل الكائن؟

وجدتُ في هذا التشوش أكثرَ ممّا أحتمل، أو أكثرَ ممّا يستحقّه اختفاءُ نصٍّ، بسببِ طباعةٍ بدائية، ولذلك فضّلتُ أن أغادرَ إلى البيت.

٤

أكاد أقول، وبعد مرورِ أشهرٍ على ما حدث مع الطبعةِ الحجرية لكتابِ "مروج الذهب"، أني نسيتُ خبر "مدينة النحاس"، تحت وطأة عوامل جديدة، وفدتْ عليّ من الحياة العامّة، والحياةِ الخاصّة، على حدٍّ سواء. إلى جانب أني انشغلتُ بقراءة مزيد من كُتُب الرواية، دون أن أتوقّف عن ولهي بقراءةِ الكُتُب القديمة. وجدتُ أن الرواية توفّر لي شخوصاً، أستطيع الحوار معها، وأفكاراً، تضعني على مزيد من مفترقات الطرق، أو مزيد من القلق، بتعبير صديقي كاظم، في حين تشكّل اللغةُ القديمةُ، بنثرها وشعرِها، قاعدةً من تربةٍ خصبة، أو خلفيةً بلونٍ غامقٍ لمضطَرَبِ حياتي الشخصية.

في البيت، صارت عمّتي العمياء تعاني من آلام غامضة، تعتصرُ جسدَها وروحَها طوال الليل. وما إن يُقبلَ النهارُ حتّى تعودَ متعافيةً، كما كانت، يسيرةً للمحادثة مع أمّي وأختي، وكلِّ مَن تشعر به على مقربةٍ منها. ولم يجرؤ أحدٌ على سؤالها حول هذه المفارقة الغريبة بين الليلِ وانهار، خشيةً من استثارةِ الآلام، التي بدتْ لي وللآخرين غامضةَ المصدر تماماً. أخي رُزق بطفلةٍ إضافية، وأمّي صارتْ تعتمد على أختي في الكثير من أعمال البيت. وأختي المثابرة أصبحت - بدورها - تحلم بعريس، شأنَ كل فتاةٍ بسنّها. كانت تكبرني بسنتين، وأنا الأصغر في العائلة، كنتُ الوحيد الذي واصل الدراسة حتّى دخول الجامعة. كان هذا مصدر مَسرّة للعائلة.

ولكنْ؛ ما كان يُقلقها، وخاصّة أمّي، هو هذا الاستغراقُ الذي يرونه مبالغاً به في قراءة الكُتُب. مرّة قال لي أخي بهذا الشأن رأياً، استوقفني كثيراً:

ـ كُتُبُ المدرسة هي كُتُبُ الحكومة، ولكن الكُتُبَ الأخرى هي كُتُبُ المعارضة. هكذا تفكّرُ السلطة حين أصبحت حزبية هذه الأيام. وهذا هو مصدر قلق الوالدة، فيما أعتقد. الجميعُ في المحلّة يعرف وَلَعَكَ بقراءة الكُتُب الأخرى، الكُتُبُ غير المقرّرة. كُتُبُ الأدب والفكر، تراثيةً كانت أو حداثية، لا فرق. ولأنك تنفردُ بهذا دونهم، فهم يتحدّثون عنكَ كشيء مُلفتٍ للنظر. انتباهُهم لهذا ليس بالأمر الجديد، ولكن الجديدَ أن أبناءَ المحلّة هؤلاء أصبحوا على غير ما كانوا عليه. الآن هم عناصرٌ في السلطة، حتّى لو كانوا عناصرَ بالغة الصغر، أو غيرَ ذات أهمّيّة. هذا الأمر، على العكس، يجعلهم بحاجة إلى مخالبَ وأنياب، في محيطهم المحلّي الصغير. إنهم يريدون سيادةً على أحد، بأيِّ شكل. عناصرُ السلطة العليا تعرف هذا، وتمدُّ له الحبل. إن إرهابَ الناس شيءٌ بالغُ الأهمّيّة لديها. ولا تنسَ أنكَ لستَ واحداً منهم. هم يعرفون ذلك، ولا فرق لديهم بين أن تكون صديقاً أو عدوّاً. ما يُثير حفيظتهم أنكَ لستَ منهم.

أدهشني تحليله، الذي بدا لي بالغَ الدقّة:

ـ كلامٌ ينمُّ عن بصيرة. كيف تيسّر لكَ كلُّ هذا؟

ـ أنت تُغفل الفترةَ التي كنتُ فيها غارقاً في النشاط السياسي، أو النشاط الحزبي. ربّما كنتَ صبياً حينها. على كل حال، هذا ليس بالأمر الجديد عليّ. الجماعةُ يشجّعون على قراءة الكُتُب، ولكنْ؛ بتوجيه منهم، أو درايةٍ بطبيعة القراءة على الأقلّ. نحن كنا نفعل ذلك.

كنت أُحضّر لامتحانات السنة الثانية في الكُلّيّة، وذهابي إلى المكتبة أصبح بين يوم ويوم. ولا أريد أن أُخفي أن حبّاً فاجأ قلبي لفتاة تقربني في العمر منذ أسابيع عدّة أيضاً. لم يعطّل هذا الحبّ لديَّ همّتي في الدراسة، ولا في قراءةِ الكُتُب، ولا في مراقبةِ ما يحدث حولي، ولا في الاحتراسِ على قدْرِ ما أستطيع من التماسِّ الخشنِ مع الآخرين؛ أعني أولئك الذين صاروا يتميّزون بحضورٍ، لا مَردَّ له في المقهى، وفي مُلتقى الدروب الضيّقة للمحلّة. وكان منهم أغرابٌ يقيمون في أكثر من طرفٍ من أطراف كرادة مريم الواسعة. لباسهم الكاكي هويةٌ، لا يمكن أن يُخطئها أحد.

الحبّ، أو مشروعُه بكلمة أدقّ، لم يحدث بسببِ نظرةٍ مفاجئة محكومة بالصدفة. بل حدث بوساطة حبٍّ آخر، أملتْه الصداقة العميقة. حبُّ الصداقة التي قرّبتْني من مصطفى كان قد تعمّق في أيام قليلة، منذ تناولنا الغداءَ سويةً، وجرى بيننا حديثُ القطيعة التي تجمعنا للحاضر. لقد التقيتُه في اليوم التالي، وفي اليوم الثالث، جاء معي إلى المكتبة، وانتخبتُ له بعضَ الكُتُب التي نصحتُه بقراءتها. بعد ذلك، صِرنا نلتقي كلَّ يوم. وله وحده، حكيتُ ما حدث لي مع "مدينة النحاس"، ومع الاسم الذي تركه الرجل الكهل على الورقة في المكتبة. صرتُ أشعر أن مصطفى هو شخصي في المرآة، لي كل الحقّ في أن أتأمّله دون حرج، وأحدّثه دون محاذير. كان يُصغي لي معظم الأحيان، ويكتفي بالاستجابة القانعة، أو بالأسئلة الحائرة. وما كنتُ أرى في استجابته، ولا أسئلته إلا الطرفَ السالب، الذي لا غنىً عنه في توليد الطاقة مع طرفي الموجب. هذا الحبُّ الذي وُلد من صداقة روحية، فتح لي السبيلَ لحُبٍّ مختلفٍ، لا يقلُّ عنه عذوبةً وعُمقاً في التأثير. في اليوم الأوّل الذي صحبتُه فيه إلى بيته، رأيتُ أخته التي تصغره سنةً أو سنتين، كما سبق أن قال لي، تقفُ على عتَبةِ باب

البيت، تراقب أطفالاً، يحثون الترابَ على بعضهم البعض، وهي تبتسم. كانت بشرتُها صافيةً، وعيناها واسعتين بصورة تُلفت النظر، وقد عقدت شعرها البنيَّ الكثيف إلى الخلف. حيّيتُها، ودخلتُ مع مصطفى البيت، أدخلَني في غرفة ضيوفٍ، لا تختلف كثيراً عن الغرفة التي أحتلُّها في بيتنا. إلا أن الكرويتات هنا تنعمُ بأفرشةٍ وثيرة، وبالتالي مريحةٍ مقارنة، بما في غرفتي. ما إن جلستُ حتّى رأيتُها تُطل عليّ مبتسمة؛ لتسألني إذا ما كنتُ أرغب بشاي وماء:

ـ الشاي جاهز على النار، فلن تكلّفني جهداً، لو سألتَ.

كانت جملتها جريئة، وبالتالي مشجّعة لي؛ لأجيب بالطلاقة ذاتها:

ـ استكان شاي، وكأس ماء، إذنْ.

كنتُ أودّ أن أُضيفَ "من يدكِ أنتِ"، ولكني ابتلعتُ الإضافةَ لخرَسٍ دبَّ في لساني، لا بفعل الحرج، بل بفعلِ إشراقةِ جمالٍ ما كنتُ أتوقّعها من بيت صديقي مصطفى، ولا من محلّتي "العبّاسيّة". ولعلّها لم تكنْ إشراقةَ جمالٍ خالصةٍ في ذاتها، بل كانت موجّهةً بصورة غامضة إليّ أنا. كان فيها شيء من الكرم بأن تُقبل إليَّ عن رضى المُعجب، الذي لم يجد بيننا من حجاب. ما كان يهمّني لحظتَها إذا ما كنتُ أوهمُ النفس، وأُسلّمها لجناحين من شمع. لقد وجدتُ في مصطفى صورتي في المرآة، ووجدتُ في أخته المرآةَ التي تعفيني من رؤية نفسي، والتحديق بها. تعفيني من الحوارِ الحائر، وتُسلّمُني بيدٍ رحيمة إلى حياةٍ بديلةٍ في قلب الحاضر. في قلب هذا الحاضر الذي أُنكرُه. حين جلس مصطفى معي، قال لي إن ملاذ تسمع بي، وتُعجَب بي من فترة، حتّى إنها سألتْه أن يصحبني معه

في زيارة إلى البيت. دخلتْ ملاذ بصينية الشاي وكأس الماء، وقد وقفتُ أستلمها منها، وأعتذر عن هذا التكليف. استدارتْ، وجلستْ على الكرويتة المقابلة، وهي تخاطبني:

ـ كيف استعدادكَ للامتحان؟

ـ جيّد. الدراسة صارت تثقلُ عليّ، ولكني مُلزَم بمواصلتها حتّى أنتهي من الجامعة، وأتفرّغ للكتابة. هذا ما أريده حقّاً.

ـ قال لي مصطفى إنك تكتب بين حين وآخر. أودُّ لو أطّلع على شيء ممّا تكتب. أنا أحبُّ القراءةَ مثل مصطفى.

سارع مصطفى بالقول:

ـ تقرأ أكثر مني. أعترف بذلك. وملاذ تكتب هي الأخرى أحياناً. وكالعادة، لا تدعْ أحداً يطّلع على ما تكتب.

ـ سأُطلعكِ على ما أكتب، إذا ما فعلتِ أنتِ بالمثل. لا مانعَ لديّ.

قلتُ ذلك ضاحكاً. شعرتُ أن شيئاً ما يفيض بي، حتّى خشيتُ أن يُربك في فمي الكلمات. كانت هي تنظرُ مبتسمة، وكأنها تُقبل إليَّ من بين دفّتي كتاب. "في الكُتُب، تتجلّى روح الزمن الماضي.."، قلتُ لنفسي، تخرج من دفّتي كتاب، وتجلس معي؛ لتبتسم. أحني رأسي لأُحكمَ القبضةَ على هذا الفيض، وأتوازن. إنني أحبّ، قلتُ لنفسي، ولكنْ؛ ليس الحبّ الذي أطاح بـ"أنّا كارانينا". أحبُّ، هذا شيء أكيد. أحسستُ بشفتي ترتجف.

أذكر أنني حين غادرتُ الغرفة، مَسستُ أصابعها، وقد ألقتْها بين

أصابعي مودّعةً. مسستُها في حلمٍ بعيدٍ عن الواقع الذي أعرفه، وأُنكره وأفضّلُ الهربَ منه. في الشارع، كنتُ أحرص أن أضعَ أصابعَ مصطفى في راحتي، ونحن نتّجه إلى الطريق الرئيس الذي يتوسّط محلّة "العبّاسيّة". بالقرب من مقهى "عليان" المحلّية، وعلى جانبٍ من الشارع، كانت حلقة من الشبّان، من بينهم كاظم، وآخر أعرفه بلا اسم، وشابّان ليسا من المحلّة، يتحدّثون فيما بينهم بحماس، ويضحكون بين حين وآخر. كنتُ أرغب بتحاشيهم، لا تجنّباً لأية مماحكة، بل رغبةً في أن لا أنشغل عن كيان ملاذ الذي يصحبُني تامّاً، لا نقصان فيه. كنتُ أريد أن أكون مع مصطفى أطولَ فترة ممكنة، قبل أن أعود إلى البيت، وإلى الدراسة. ولكن الأمر لم يكن طوعَ رغبتي، فما إن أصبحتُ على مقربة، وكنتُ أستعدُّ للتحية والعبور بسلام، حتّى التفت إليَّ كاظم من بينهم هاتفاً:

ـ تحيّات. لم تكنْ في المكتبة هذا اليوم. كنتُ جئتُ المكتبة، فوجدتُها مغلقة. تذكّرتُ الامتحانات. توقّفْ معنا قليلاً.

توقّفتُ، ودخلتُ في حلقتهم، وقد مَدَدتُ يدي، أتعارفُ على مَن لا أعرف من المجموعة. قال كاظم من جديد:

ـ كنا بذِكْرِكَ قبل قليل. أبدوا إعجاباً ورغبة في التعرّف. قلتُ لهم بأنكَ الوحيد من جيلنا الذي يقرأ بجدّيّة.

عقّب شابٌ طويل نسبياً، وكان ينفرد باللباس الكاكي:

ـ أتمنّى أن يكون أخونا على مقربة منا دائماً. نحن لا نقرأ كثيراً، هذا صحيح، ولكن هذا لا يعني بأنا لا نحبُّ الكُتُب. المشكلةُ أني أشتري كُتُباً تعجبني، ولكني أكتشف أن لا وقت لي لقراءتها. هذا كل ما في الأمر.

قلتُ له، وكأني أعتذر بالنيابة عنه بمحاولة تعزيز كلامه:

ـ معكَ حقّ. هذه هي المشكلة مع القراءة.

ـ هناك فعل يعوّض عن القراءة. أليس كذلك؟ المسؤولية تتطلّب منكَ وقتاً. وبصراحة هذا الأمر يُرضيني أنا شخصياً. لو أني خُيّرت بين القراءة والفعل؛ لاخترتُ الفعل. الوطنُ يحتاج إلى الفعل الذي أُنجزه، لا الكتاب الذي أقرؤه.

كلمة "الوطن" ألقت لوناً كامداً على مسار الحديث. لم أتجرّأ على المداخلة، ولا أحدٌ غيري. قال كاظم، وأحسبه يعمد إلى تغيير مسار الحديث:

ـ هل ستذهب غداً للمكتبة؟ أريد أن أستعير "سيرة ابن هشام"، مع كتاب "على هامش السيرة" لطه حسين. أحبّ أن أراوح بينهما في القراءة.

ـ كلاهما متوفّر.

قلتُ، واعتذرتُ عن اضطراري للانسحاب لمتابعة دروسي في البيت. قال الشخص بالكاكي:

ـ لا بدّ أن نلتقي على خير ثانية. نحن نعوّل عليكم بالقراءة والفعل.

قال ذلك بنوعٍ من النشوة، وكأنه التقطَ بحديثه السابق معنا مادةً تؤهّلُه لاحتلالِ موقعٍ لا غنىً عنه بيننا. شكرتُه أنا، وغادرتُهم مع مصطفى، بعد أن قلتُ لـ كاظم بصوت خفيض:

ـ أراكَ في المكتبة غداً.

وفعلاً التقيتُ كاظم في المكتبة في اليوم التالي، وسجّلتُ استعارتَهُ لكتابيَ ابن هشام وطه حسين. وحدّثني عمّا جرى البارحة في "العبّاسية"، فقد التقى الأصدقاء الأربعة في "مقهى فاضل"، بعيداً عن "العبّاسيّة"، أوّل الأمر. قال لهم إنه سيذهب إلى "العبّاسيّة" رغبة بلقاء بعض الأصدقاء هناك، ولعلّ اسمي ورد عفواً على لسانِه، فرغب الجميعُ في صحبته:

ـ ما كنتُ أحبّ أن يأتي محمّد البايسكلجي بالذات معنا. إنه يرغب أن يكون رايةَ للحزب والسلطة؛ حيث يذهب. إنه ليس سيّئاً، كما رأيتَ، ولا يريد أن يسيء لأحد. ولعلّه تحدّث معكَ بتلك الطريقة؛ ليكون صاحبَ رأي هو الآخر، ليس إلا. كنتُ أرغب في اللقاء معكَ على انفراد، ولكني لم أُوفّق للأسف. كنتُ أودّ لو أتحدّث عمّا يجري حولكَ وحولي. أنا أكثر درايةً منكَ بهذا الأمر بالتأكيد. السلطةُ الحزبية تريد أن تنسبَ لها حتّى الأشجار. والناسُ تستجيب طلباً للسلامة. وبالرغم من أني أحسّ أن الأمرَ لن يدومَ؛ لأن الحزبَ ليس له يدٌ طولى في الجيش، والجيشُ - بدوره - غير متحزّب لأحد غير آمره، إلا أني لا أعرف متى يحدث المُنقلب. سياسيو السلطة مشغولون بالسلطة كالعادة، ما دامت طريةً في أيديهم، ولا بصيرةَ لهم في ما يحدث خارجها. وهذا رأي لا أستطيع أن أقوله همساً لأحد. أريدُ أن أكتمَكَ سرّاً. لديّ قبول من جامعة القاهرة للدراسة هناك. وأنتَ تعرف بأني عضو في الحزب منذ سنوات قبل الانقلاب. عضو لم يعدْ مؤمناً بمبادئه، أو أيّ مبادئ، وهذا أمرٌ ينطوي على خطورة. أعتقدُ أني سبق أن حدّثتُكَ عن موقفي. إن كياني استدار في جملته إلى درب آخر غير مُعبّد، لم تطأه قدمُ أحدٍ قبلي. إنه طريقي الذي يخصّني وحدي. الآن تعرف عني معلومةً مُضافة. الحزب سيُفاجأ بإنكار، لو فاتحتُه برغبتي في السفر للدراسة.

ـ مصطفى أخبرني نهارَ هذا اليوم أن صديقاً اتّصل به البارحة، وأعطاه استمارةَ الحزب، وطلب منه أن يملأها، ونصحه أن يوافقَ على الانتساب. هذا طلبٌ يُخفي أمراً. ولعلّ صديقاً من هؤلاء سيتّصلُ بي في أيّ يوم قادم. إن انتزاعي ممّا أنا عليه أمرٌ يَنتزع مني الحياة.

ـ محتمل جداً. حين تحدّثوا عنك البارحةَ ذكر محمّد إدارتكَ للمكتبة. قال إنها ملتقى عدد من أصدقائكَ، وأنتم قدوةٌ في المنطقة. الحزب يعتزّ بكم. حين قلتُ له بأني واحد منكم أومأ برأسه متمتماً: نعرف، نعرف. كنتُ أريد أن أضعكَ في دائرة مشتركة. محمّد البايسكلجي لا يحبّ أن يتحدّث باسمه مطلقاً. إنه يحبّ أن يتحدّث باسم الحزب. هذا جزءٌ من طموحه.

لقد أعتمتْ المكتبةُ في عيني قليلاً. غمرتْها بدلَ الكُتُب ملامحُ ملاذ مبتسمةً، فانتابني شعورٌ بأن كلَّ الذي يريد أن يحدث، إنما يحدث للإجهاز على مشروع حبّي هذا. يريد أن ينتزعَني من الماضي، ويُلقيني مُرغماً في المستقبل. يريد أن يغلقَ الكتابَ بوجه ملاذ، التي طلعتْ منه إليّ، وطلع منه مصطفى. يريد أن يطمرَهما، كما يَطمر الماضي. جلستُ على الكرسي مُنهكاً، ولعلّ كاظم أحسّ بهذا، فشغلَ نفسه برفٍّ من رفوف الكُتُب، على غير تعيين، يقلّبُ فيه الكُتُبَ، وتركني أستريح. كنتُ أودّ لو أحدّثه عن حبّي الذي فاجأني، وأنا في غمرة دراستي، واستعدادي للامتحانات. ولكن حبّي ثمرةٌ، لا تحتمل أن تتعرّض للهواء بعد. رفعتُ رأسي له:

ـ لا أعرف.

ـ لا تعرف ماذا؟ المشكلة أنكَ حتّى لو انتسبتَ كذباً، مجرّدَ توقيعٍ، فإن أحداً منهم لن يتركَك لنفسكَ يوماً واحداً. أنت تعرف أن للعضو مهمّاتٍ، خاصّة إذا كان من طرازكَ. إنني لا أريد أن أعتّم عليكَ الحياة.

ـ ولكنها أعتمتْ كفاية.

أجبتُه ضاحكاً؛ لأبعثر الكدرَ الذي طغى على ملامحي. وقفتُ قائلاً:

ـ حان وقت العودة إلى البيت. لا أحبّ أن أعود حين تُظلم. هل ستذهب إلى "مقهى فاضل"، فتأخذ الطريق معي؟

ـ لا أعتقد. سأعود إلى البيت أنا الآخر.

كنتُ أرغب بهذا. كنتُ أحبّ أن أنفردَ بنفسي في طريق العودة. أو أنفردَ بملاذ في الحقيقة. أتحدّث معها، فهي تليق بطريق العودة المحاذي للماء المُعرّضِ للنسيمِ البارد المُشبعِ بلألأة "أبي نؤاس" وأصداءِ موسيقاه. خرجنا أنا وكاظم من المكتبة، أقفلتُ الباب، وفي الخارج، ذهب كلُّ واحدٍ منا إلى سبيله.

٥

كنتُ على السطح، مستلقياً على الوسادة فوق سريري، محتضناً رواية "الساعة الخامسة والعشرون"، ولا أصلح للقراءة. هل سأتفرّغُ لتأمّل النجوم هذه الليلة؟ لم تتبقَّ لي منطقةُ حياد في هذه الحياة، التي تفرض عليّ خياراً بين ملاذ من جهة، وبين رحيم البايسكلجي. بين الماضي الذي أُحلّق فيه بحُرّيّة طائر، وبين رحى الحاضر. حجارة ثقيلة على الصدر. عجزي عن مواصلة الدراسة للامتحانات أشعرني بالخوف لأوّل مرّة في حياتي الدراسية. الساعات المعتادة التي أتفرّغ فيها للدراسة خَلَتْ من أيّ دافع، وفقدتْ كلّ معنى. كتلة الضباب العائمة بين عيني والكتاب يشترك في تكوينها أكثر من أنبوب، يبعثُ البخار الخانق: الحبُّ الذي يبدو وكأنه أقبل عليَّ بصورة مفاجئة، أحسُّه متجذّراً في تربة ماضيّ. حبٌّ لم يُولَد بي فجأة، بل استيقظ بي من نوم. ثمّ هذا الحصار الذي يُطبق عليّ دون مقدّمات؛ يُقحمني بالقوّة والفَرْض في تاريخه، الذي لا رغبة لي حتّى في النظر إليه، وهو يرتسم في وجوه الآخرين. بالرغم من أنني أرى ملاذ ومصطفى كل يوم تقريباً، حتّى لو كانت رؤية غائمة من بعيد أحياناً، إلا أن حاجةً تشدّني الآن إلى رؤيتها، والتحدّث معها؛ لأني أعرف أن هذا وحده يكفل إزالةَ هذا الإحساس الخانق بالحصار. ولكنْ؛ كيف تتيسّر لي رؤيتُها، وقد حلّ الليل؛ والليلُ يجمعُ العائلةَ كحزمة القصب، ولا يتركها متناثرةً، كما يسمح النهار عادة؟

إذا كان للعمق لونٌ، فهو لون السماء هذه، على صفحتها تزدحم النجوم. وبالرغم من أن إضاءات "أبي نؤاس" تُفسد هذا العمق أحياناً، إلا أن العينَ التي يفيضُ فيها الأسى تكفَلُ الفُرصَ المتحفّزةَ لسِحْر الخيال. كنتُ أسمع أصواتِ أمّي وعمّتي وأختي وزوجةِ أخي تتناوب في حديثٍ، أتبيّنه، يتصاعدُ إليَّ من حوش البيت، مع خيوطِ الضوءِ المشوبةِ بدخانِ السجائر. أصواتٌ تبعث بي طمأنينةً مؤقّتةً بين حين وآخر. قرّبتُ إليَّ وجهَ أمّي، الذي كان لا يخلو من أسىً هو الآخر. رفعتُ ساعدَها بهدوء، وأرحتُ كفَّه الناحلَ على صدري، ورحتُ أتلمّسُ الأصابعَ المعروقةَ الناعمةَ بأصابعي. كنتُ أجرؤ أن أهمسَ لها بحقيقةِ مشاعر الحبِّ التي تعتمل في صدري: إنني أفيضُ بالحبّ، يا أمّي. أفيضُ بحبِّ فتاة، لعلّكِ تعرفينها عن بُعد، أو عن قُرب، لا أدري. ولكني على يقين من أنكِ، لو التقيتُما، ستحبّينها بقدر ما أحبّها. كنا نمسُّ بعضاً بالأصابع، ومرةً قبّلتُ أصابعها. قبّلتُها كما أقبّل أصابعكِ الآن. ولكنني أفيضُ بالحزن أيضاً. أشعرُ بأني محاصرٌ، منذُ زمن، والحصارُ يضيق أكثرَ مع الوقت. كيف أستغيثُ بكِ، وأنتِ أضعفُ من أن تحتملي استغاثتي؟! كنتُ قبل الحصار تأخذ بي الكُتُب القديمة بعيداً عن كل حاضر. حتّى صار الإحساسُ بالحاضر مُبعثَ إحساسٍ باغترابٍ بالغِ العمق. ولكنكِ كنتِ معي حين تأخذُني الكُتُبُ القديمة بعيداً. كنتِ تتخلّين عن الحاضرِ بيُسرٍ، وتأتين معي. ولا مانع لديكِ من هذا الإحساسِ بالاغترابِ، لو شملكِ منه شيء. ولكنْ؛ كيف يُمكن أن تكوني معي بين كمّاشاتِ هذا الحصار؟! إنني أحرصُ على أن لا تعرفي شيئاً عن حصاري هذا. لا أريدُك أن تتعرّضي له معي. مشاركتي في اغترابي قد يبعث فيكِ الأسى الذي يغمرني، وأنت منذورةٌ للأسى منذ وقعتْ عيناي على وجهكِ، وأنا في حضنكِ. ولكن مشاركتي الإحساسَ بالحصار، سيبعثُ فيكِ الخوفَ عليَّ،

والخشيةَ ممّا يحدث، وممّا سيحدث. وأنا لا أريدُ لكِ ذلك. إن كيانكِ الخائفَ سيجعلكِ ملاذي الهشّ.

رأيتُ أمّي بلباسها الرمادي، وفوطتِها السوداء حول الرأس، تنتصبُ أمامَ سريري، وهي تقول بصوتها الهادئ:

ـ تتحدّث مع مَنْ، وعينُكَ مُغمضة؟

أجبتُها بشيء من ارتباك، وكأني أستيقظ:

ـ يمّه! لم أسمعْك تصعدين السّلّم. لم أكنْ أتحدّث مع أحد. كنتُ أستظهر درساً بيني وبين نفسي، فقط. ولكنْ؛ لمَ صعودكِ السطح في هذا الوقت المبكّر؟!

ـ جئتُك بصحن رگّي وبطيخ، وقطع من الجبن والخبز. وضعتُه على السور؛ ليبرد. أنتَ تنام متأخّراً، ولا يكفيكَ العَشاءُ الذي تناولتَه. لا تنسَ أن تأكل.

استدارتْ، واتجهتْ عائدةً إلى السّلّم الخشبي.

شعرتُ وكأني قطعتُ رحيلاً عذباً، بالرغم من مُنغّصاتِ الاغتراب فيه، ومنغّصات الحصار.

هل أراد كاظم، في حديثه معي عن سفره غير المُعلَن لمواصلة الدراسة، أن يُحفّزني أنا الآخر للسفر؟ كاظم أعرَفُ مني بالذي يحدث، ولعلّ رغبتَه في أن يهجرَ البلد ذاتُ صلةٍ وثيقةٍ بهذه المعرفة. أخي أشار مرّة إلى رغبة شبيهة لديه في السفر، "لو لم أكن متزوّجاً، وصاحبَ عائلة، كنتُ هجرتُ

البلد." قال لنا، ونحن نحتسي الشاي بعد الظهيرة. كانت أمّي تكتفي بالنظر إليه، ولا تُعلّق. كانت تنظرُ إليَّ أيضاً، وكأني قلتُ الجملةَ ذاتها. هل اكتفتْ بالصمت تعبيراً عن رضىً؟ أنا أيضاً لم أقل شيئاً. ولكن الفكرةَ نبتتْ في رأسي: أنْبَتَهَا أخي بكلامه، وسَقَتْها أمّي ماءً بصمتها. ما الذي يمنعني أنا الآخر من السفر؟! أسابيع، وتنتهي الامتحانات. ثمّ ستمتدّ العطلةُ بعدها لأكثر من شهرين. والمبلغ الذي يتطلّبه السفر سأفكّر به فيما بعد. قلبتُ كتاب "الساعة الخامسة والعشرون" على صدري بشيء من التوتّر، وكأني أُبعد فكرة: "ولكنْ؛ ملاذ؟!" كانت النجوم تومض، ومعها تومض الأسئلة المحيّرة. النسيم الذي يُقبل من النهر يُحرّك ورائي آلافاً من سعفاتِ النخيل. صوتها مُندّى، يُرطّب بشرتي التي أحسستُها ناشفة. وأمامي تتناوبُ أسوارُ الأسطح المتفاوتةُ الارتفاع، في رسم الخطّ البياني الذي يفصل الليل عن الإضاءة الباهتة التي تنبعث من البيوت. لابد أن العوائل تهجر الآن غرفَها، وتتسلّل إلى السطوح. هناك تسمُرُ، تأكلُ، وتتحدّث. ملاذ من بينهم، ومصطفى أيضاً. مددتُ أصابعي فوق نسيج دشداشتي البارد، وتلمّستُ أصابعها. حاولتُ أن أُمسكَ بها، وأقرّبها من فمي.

عدتُ إلى سماء الليل، وإلى نجومها، وكأني أفي بوعدِ البحث عن قَدَري. والأقدارُ موصولة بالنجوم. مَن يُحسن قراءة الطالع في هذه الغابة التي تأتلق فيها الثمار؟ لمَ لا يُنكرني الزمن الحاضرُ كما أُنكره، يتجنّبني كما أتجنّبه، يغفل عني، ويطرحني للنسيان، كما أفعلُ به؟! قبل يومين، تحدّث معي صالح وحميد بلهجة محمّد البايسكلجي ذاتها. رغم معرفتي الأكيدة ببُعدهما عن مشاغل السياسة، ومشاغل الانتساب. كانا من عمري تماماً، وصحبتُهما مبكّرة تعود إلى الطفولة، ولكن مشاغلَ القراءة وفارقَ الاهتمام أبعدَتْنا عن بعض، بصورة من الصورة. تحدّثا معي بلهجة ثقيلة

على لسانيهما، بدت مُتكلّفة، وغير معتادة. بادرني صالح بدون مقدّمات، ما إن التقياني:

ـ كنتَ في بالنا، أنا وحميد، قبل ساعة. كنا نعجب من محاولتكَ الابتعاد عنا بالذات. عن الجميع، إذا أردتَ الصراحة. ما نعمله اليوم، نحن والآخرون، لا قيمة له في نظركَ. هذا ما كنا نقوله. لا قيمة له، فقط لأنه بعيد عن كُتُبكَ. هذا يثير الغيظ، تعرف؟ نحن لا نريدكَ أن تلحق بزهير.

"ما نعمله اليوم.." جملة ثبَتتْ كالمسمار في رأسي. بعثتْ بي خوفاً، ما كان ليحدث لو صدرت عن محمّد البايسكلجي. لقد كانا ناشفَي الوجه، ولا ينتظران مني إجابة. ولذلك تركتُهما يتجاوزاني، وأنا صامت. لقد جعلاني في بضع دقائق أشعر أن شبّان "العبّاسيّة" جميعاً صاروا بين ليلة وضحاها على شاكلتهما. شيء فاجأني منهما، وجعلني أتصدّع كجرّة قديمة. ما الذي يجري وأنا غافل؟! النسيم الذي يدفعه سعفُ النخيل من خلفي يمسّني، ويمسُّ فراشي، ويمضي إلى سبيله. يتّسعُ اتساعَ "العبّاسيّة" التي تنتظر النوم. المحلّة التي أحببتُ دِعتَها، واستراحتها الكسول على ضفّة نهرها الذي ينتسب لها. هذه قناعة الجميع. مَن يجرؤ أن يتحدّث عن الماء، والسمك، وجزرِ الرمل، وزوارقِ الخشب أمام أحد منهم؟! بالنسبة لبغداد كانت "العبّاسيّة" هامشاً متواضعاً ومَنسياً على نهرها الخاصّ. وكلا التواضع والنسيان أضفيا مسحةً من الخيال على قدرات أبنائها، تتّضح أكثر ما تتّضحُ في أنهم لا يتنادون بأسمائهم، بل يختلقون بعضهم لبعض ألقاباً عجيبة، فيها الكثير من الظرف، وخفّة الدم، والقسوة الجارحة معظم الأحيان. فمنهم مَن تجد النسيانَ قد طوى اسمه الحقيقي، ولم يتبقّ له إلا لقب، التصق به، وما عليه إلا أن يطيقه مرغماً، ولا حيلة له. أستعيد

هذه الألقاب التي احتلّت أسماءهم التقليدية، وأعطتْها حيويةً مُفتقدة. أستعيدُها، وألقيها في تيّارِ النسيم الحلو العابر؛ لتتوزّع على أصحابها الغافلين: قاسم قنْبر، فاضل أبو عُلُص، عُكيّ، علي شِجَر، علي العِتوي، علي الهِرّ، عِليّان، يوسف فِسْفِس، عُبيد شقاوة، محمّد حُولي، حگّولي، بعرورة، صالح عكْرة، حمزة فُنْفُن، عگّار، عفّي، جواد اللكُش، كَسْكين، عادل فتيلة، خروشيف أبو صماخ، عظّومي جحر، عباس قَماقة، عبّود الأسود، صالح الأطرش، حمزة الأخرس، صالح حُقنة، علي نِنْ، طيزان، عادل تَنَفُّس، حسين عنْبگي، صادق لگْرع، نوري لَگْرط، دللي، بابل، أبو عروگ، حَنْدش، ستّوت، حسين هللوس، هادي عربيد، عبدون، حمزة بقْبقْ، حمزة الثوري، عجّوم، فالح خصوه، طرّوزة، أبو قرش، عبد بلِيَع.....

ومَسحةُ الخيال التي أُضيفتْ على قدراتي أنا، لم تكنْ لتختلف عن مَسحةِ أخيلتهم بالدرجة، بل بالنوع. ففيمَ كانت أخيلتهم واقعياً، يقتسمون مادّتَها معاً، كان واقعي خيالياً، لا يشاركني فيه أحد. وكان هذا مَبعثَ أسىً، لا مدى لعمقه.

كانت وجوهُهم تصحب ألقابهم تباعاً في مخيّلتي، وأنا مغمضَ العينين، أو أكاد. ومخيّلتي تتوقّف عند كل واحد منهم. وأحياناً تتوقّف طويلاً. معظمهم من أبناء الحيّ، مألوفون منذ طفولتي. منهم من جيلي، وآخرون يكبروني سنّاً، أو يصغرون. كانت مخيّلتي تتوقّف؛ لتستحضرَ طباعَهم، وتتأمّلها. وهي طباعٌ بدت لي عاريةً بالغةَ الوضوح لأوّل مرّة، ولا تخلو من غرابة. ولعلّ في هذه الغرابة مَبعثَ ألقابهم. بعضُهم كان يجعلني أبتسم، وهو يحدّق بي، وربّما أضحك. كانوا في تتابعهم على مخيّلتي لا يختلفون عن أمواج دجلة، التي تلاحق بعضاً، وهي تعكس أضواء وأصداء "أبي

نؤاس"، على بُعد مئة متر من السرير، الذي أرقد عليه. كلاهما يُسهمان في هَدْهَدَةِ كياني الناعس، ويقودانه إلى غفوةٍ، تجاوزت إرادتي.

كنتُ نائماً، وكتابُ "الساعة الخامسة والعشرون" على الصدر، على ما يبدو، حين سمعتُ أمّي تمسّ يدي، وتخاطبني بصوت خفيض:

ـ يمّه، اقعد. غفوتَ، ولم تأكل شيئاً. خذْ لقمة من الجبنة والخبز، ونمْ بعدها.

٦

في المكتبة، دخلَ علي إمامُ الحسينية، وهو سيّدٌ بعمامةٍ سوداء، مَحنيُّ الظهر قليلاً، وفي وجهه سماحةٌ، لا تُخطئها العين. قال لي مبتسماً:

ـ كيف حالكَ مع الكُتُب هذه الأيام؟ أصبحَ قرّاءُ المكتبة أكثر عدداً. الله يُكثر من أمثالهم. ولكنْ؛ هناك ما يُعكّر المزاج. اليوم صباحاً على الإفطار، كان ابني هادي يحدّثني عمّا يجري هذه الأيام. قال إن بعضَ شبان الحَرَس يتحدّثون عن ضرورة الاتصال بقرّاء مكتبتكَ. ابني هادي يعتقد أنهم يريدون أن تكون القراءةُ موجّهة، مثل المدارس. هناك حَرَسٌ شعبي سبقهم بتوجّهٍ مشابهٍ قبل سنوات، في مرحلة، لعلّك تذكرها. كانوا يحذّرون من قراءة الناس للكُتُب. كلّ ما أتمنّاه أن لا أرى المكتبةَ مُغلقة، لا سمح الله. حين جئتُ كرادة مريم هذه، كانت الأيام بخير. كنتُ أستبشر خيراً دائماً. ولكن الحالَ صار يتغيّر بتسارعٍ منذ سنوات. دخل العسكر السياسة، وأحدثوا انقلابات عدّة. الأمر زادني غرقاً في العبادة، والعبادةُ زادتني جهلاً بما يحدث. أرجو من الله أن لا أكون مخطئاً.

ـ أنتَ على حقّ، سيّد. من الأفضل أن يزدادَ أحدُنا جهلاً بما يحدث. هذا حقلٌ من المعرفة لا غناء فيه، ولا منفعة. أنا الآخر أغرقتُ نفسي بقراءة الكُتُب القديمة. ولا أعرف إذا ما سعيتُ لذلك عن قَصْد، أو غفلة. إلا أني أشعرُ أن الحياةَ حولنا تزداد سوءاً.

ـ هذا ما أشعرُه أنا الآخر. ابني هادي يقول لي أشياءَ كثيرةً بهذا الشأن. إذنْ؛ أنت أعرف، ولا أعتقد أنك تحتاج إلى نصيحتي.

قال جملتَه الأخيرةَ، وهو يقف؛ ليغادر. كان على باب المكتبة ثلاثةٌ أشخاص في انتظاره. صحبوه برعايةٍ ظاهرة إلى فضاء الحسينية. وبقيتُ أنا دون حراك لدقائق. "الحياة حولي تزداد سوءاً." سمعتُني أقول. بعد قرابة ساعة، وكنتُ مستغرقاً فيها بالقراءة، دخل كاظم، وهو يقول، وكأنه يواصل حديثاً سابقاً مع النفس:

ـ .... ووقفتُ أسألُها، وكيف سؤالنا

صُمّاً خوالدَ لا يبين جوابُها؟

جئتُ كيْ أقطعُ الطريق معكَ إلى العبّاسيّة، ومن هناك، أواصل إلى المقهى.

قلتُ له، وكأني أجيبه:

ـ إنها "صُمٌّ خوالدٌ، وما من جواب!" الوقت مناسب للذهاب إلى البيت.

على طريق العودة، كان وقت المغرب رائقاً هادئاً، وحزيناً. قلتُ لكاظم بأن هذا المغربَ رائقٌ هادئٌ، وحزين. كنتُ أرغب بمشاركته.

ـ "كالبحر، سرّح اليدين فوقه المساء." في البيت، قبل مجيئي إليكَ، أخبرتُ أمّي وأخي بفكرة سفري للدراسة في القاهرة. أخي تحمّس للفكرة، ووعدني ببعضِ المساعدة في التكاليف، ولكن أمّي بكتْ. لقد هشّمتْ

نصف اندفاعتي في داخلي. تعرف كيف يتهشّم الزجاج. تماماً كتهشّم الزجاج.

ـ ما الذي تتوقّع من أمّ؟ أمّي يغلب عليها الصمت. حين كنتُ أتحدّث مع العائلة بهذه الفكرة، كانت تُصغي، وتكتفي بالصمت. وكان صمتها أشدّ وطأة عليّ من البكاء. حتّى إني لم أجرؤ على الحديث في الموضوع أمامها ثانية. ومتى قرّرتَ المغادرة؟

ـ المغادرة الخرساء؟ لا أعرف عن يقين. سأتركُها تحدث في أي وقتٍ مناسب.

ـ مغادرتُك ستكون أيسرَ من مغادرتي. هذا، إذا ما غادرتُ.

ـ أبداً. العطلةُ الصيفية على الأبواب. ما إن تنتهي امتحاناتكَ حتّى يحقّ لك السفر للسياحة. قد يعتمد الأمرُ على وجهة سفركَ.

ـ لا أعرفُ أنا الآخر.

ـ على أن لا تكونَ دمشق؟ أنتَ تعرف.

ـ أعرف. ولا أيّ بلد عربي. أخي يقترحُ فرنسا.

ـ هذا أفضل بكثير، إذا استطعتَ ذلك. أنت لا تُحسن لغتها.

ـ بي حاجة أن أتعلّم.

ـ المُغترِب المُتطلّع يتعلّم اللغة بيُسر. المغترب الهارب قد يتعرّض لصعوبة. هذا ما أشعره.

ـ ولذلك أحتاج إلى جهد مُضاعف، وإرادة.

ـ ألا تستطيع أن تذهبَ، وكأنك مغتربٌ طامح، مغتربٌ مُتطلّع؟

ـ هاجسُ الهرب في كل مسامّة من جسدي. وأنا أضعفُ من جرادة. كيف تتسنّى لي قدرةٌ كهذه؟

ـ تأتيك من الكُتُب. كُتُبُكَ التي انتسبتَ إليها لن تكون عاجزةً عن تزويدكَ بالقدرة.

تذكّرتُ "مروج الذهب"، و"مدينة النحاس" فجأة. حجارةٌ ألقاها كاظم في بئري، جعلت الأصداء تتردّد في كياني كلّه. هل ستبعث "مدينة النحاس" بي هاجسَ المُغترب الباحث المُتطلّع، لا الهارب؟ هل سأغادر مُتطلّعاً؛ بحيث يلاشي هذا التطلّع هاجسَ الهرب؟ وتذكّرتُ بأني لم أحدّث كاظم عن قصّتي مع "مدينة النحاس".

ـ ولكني سأغادر كُتُبي أيضاً.

ـ روحُ الكُتُب ستصحبكَ. ستترك أمَّك وراءك أيضاً، ولكن روحَها ستصحبكَ. هذا ليس وَهْماً، بل حقيقة.

شعرتُ أن كلام كاظم يُبعثرني تماماً. سمعتُ الجملة القديمة تتردّد في رأسي ثانية، كما تردّدتُ وأنا مع مصطفى، في البيت أمام طعام الغداء: "في الكُتُب تتجلّى روح الزمن الماضي..". أحسُّها تخرج من قلب النسيمِ النهري في هذا المغرب الصيفي الرائق، تخرج وتمشي على وقعِ خطواتي إلى جانبي. أجبتُ كاظم:

ـ روحُ الكُتُب ستصحبني إلى المَنفى. هناك سنبحثُ سوية عن هدف،

نجهله. هل تعرف، يا كاظم، أن روح الكُتُب هذه - أحياناً - تزيلُ الخطَّ الفاصل بين الحياة الواقعية وبين عالم المخيّلة، أو العالم المجهول الذي يصاحب حياتنا هذه؟ أحيانا تجعلنا نعوم كالأسماك بين العالمين. أحياناً لا نميّز بينهما. في لحظاتٍ جدّ خاصة، حين أستغرق في النظر إلى أمّي، أراها ملاكاً بثياب رمادية، صدّقني، ولكن هذه الرؤية سرعان ما تتلاشى ما إن تتحدّث.

لم يُعلّق كاظم، كنا قد شارفنا منطقة العبّاسيّة. عبرنا بيت "البيرمانية" دون أن أنتبه، على غير العادة. استدرتُ إلى اليسار، وتركتُ كاظم يواصل سبيله على النهر. في البيت، كانت أختي وزوجةُ أخي تُعدّان العشاء. أمّي تجلس إلى جانب عمّتي. ولم يكن أخي موجوداً. ثمرُ التوت يلتمع بين أغصان شجرة التوت، وكان في لونه الأبيض المائل إلى الصفرة ما يعدُ بمذاق بارد. جلستُ على الكرويتة قريباً منهما. سألتُ عن غير قصد:

ـ كل شيء تمام؟

ـ عائلةُ أمّ زهير، جيراننا، لم يتوقّفوا عن البكاء منذ صباح هذا اليوم. قالت إنها ذهبتْ إلى "سجن بغداد"، فلم تجد ابنها هناك. قالوا لها لقد نُقل إلى مكان، لم يُخبروها عنه. الله يساعدها برحمته. أخوك يقول إنهم اعتقلوا آخرين من "كرادة مريم"، ولم يذكر أسماء؛ لعلّه لا يعرف. أنت، بحفظ الرحمن، بعيد عن السياسة، وأخوكَ كذلك. ولكنْ؛ من يعرف ما يدور في رؤوسهم؟! أخوكَ رجل كبير السّنّ الآن، وفي دائرة الخطوط الحكومية، وربّ عائلتين. ولكنكَ شابّ صغير، وتقرأ الكُتُب. هذا ما يجعلني أوسوس. إن قلبي لم يبردْ منذ اليوم الذي أخذوا به ابن أمّ زهير.

ـ أنا بعيدٌ عنهم، يمّه، وأنتِ تعرفين. فلا تقلقي.

قلتُ ذلك، وأنا أعرف أن بُعدي عنهم، على العكس، هو مصدر قلقي. التفتُّ إلى المطبخ، وأنا أشمُّ رائحةَ مقليّات، تُقبل من الركن المسقوف بالقصدير. لمحتْني أمّي:

ـ الأكل جاهز يمّه. لننتظر شوية حتّى يصل أخوكَ من المقهى. قال إنه سيكون مع أصدقائه فترة، ويعود.

ـ ننتظر. كيف أصبحتْ عمّتي؟

وجّهتُ كلامي إلى عمّتي، وكانت تدخّنُ بصمت.

ـ الحمد لله، عمّه. لا أعرف ما الذي يشدّ على خاصرتي في الليل. الرحمة من الله.

ـ نحن العائلة نتبادل غازات القولون ما بيننا، عمّه. وخاصّة في الليل.

ضحكتْ عمّتي، وأمّي، وأختي، وزوجة أخي من بعيد.

مع الضحك، وصل أخي، وفي يده حزمة فجل أبيض بأوراقه الخضر الطويلة. حين رأيتُها، واصلتُ كلامي:

ـ وها هو الفجل شاهدٌ على ذلك.

واصل الجميع الضحك، فيما كانت زوجةُ أخي تفرش بساط النايلون على الأرض، وأختي تُقبل بصحون الكباب والباذنجان المقليين، وأقراص الخبز، والخضار الكثير. طلبتْ أمّي صحناً فارغاً، وحين وصلها من يد

زوجة أخي، بدأت تلتقط ممّا في الصحون، وتضعها أمام عمّتي. جلسنا جميعاً حول طعام العشاء، وقبل أن يضع أخي لقّة الكباب في فمه، قال:

ـ هناك أخبار شاعت في المقهى سرّاً، تقول إن محاولة انقلاب فاشلة حدثتْ في الجيش. ربمّا سنرى حفلة إعدامات جديدة في ساحة التحرير، في يوم قريب.

ـ الله يستر.

قالت أختي. وهمهم الجميع، وواصلوا الأكل. أخي لم يضفْ شيئاً. ربمّا فضّل أن تأكلَ العائلة دون منغّصات. التفتَ إلى زوجته سائلاً:

ـ كيف حال الأطفال؟

ـ ناموا قبل قليل، بعد تناولهم العشاء.

فضّلتُ أن آخذ دُشّا، وأصعدُ إلى الفراش. تذكّرتُ رغبتي بمواصلة رواية "الساعة الخامسة والعشرون". "موريتز" ينتظر.

٧

عدتُ من الكُلّيّة قرابة الظهيرة. هذا آخر يوم دراسة، وأُعطينا الأسبوع الذي يليه للتحضير، والذي بعده للامتحانات. كانت شمسُ الظهيرة قاسية، تخفّف من قسوتها نسائم باردة. لم أكن متشكّكاً في مقدار استعدادي للامتحانات. ثقتي لم تكن عالية، ولكنْ؛ كافية لتحقيق النجاح. ما أزال أقرأ كفاية في ساعات الصباح المبكّر، وساعات الظهيرة، وفي الساعات التي لا أذهب فيها للمكتبة. كنتُ أودّ أن أدخلَ معهد اللغات، لدراسة الفرنسية. خالد، ابن عمّي، درس الفرنسية، ثمّ غادر لمواصلة الدراسة إلى فرنسا. لم يكن هذا حُلماً. فأنا لا أملك دمَ المغامر، ولا لحمَ الشهواني. ويكفيني القليل الذي يُبعثره الحاضرُ على مائدتي لآكل. وأعتقد أن ملاذ ومصطفى من الطينة نفسها. ألمْ نعترف بأننا لا ننتسب للحاضر؟

دخلتُ حقل النخيل، الذي يوصل إلى شارع العبّاسيّة الرئيس. التقطتُ بضعة "فضيخات" من تمر الزهدي ساقطةً الأرض الترابية. كانت ريّانةً بفعل الحرارة، ولكنها لم تنضج بعد. قضمتُ واحدة، أحسستُ بدفء أليافها الحلوة على لساني، وبين أسناني. في نهاية حقلِ النخيل، وعلى رصيف الشارع، رأيتُ من بعيد ثلاثةَ أشخاص، بلباس الكاكي، مجيد، وصالح، وحميد، ينظرون إليّ، ويتحدّثون فيما بينهم. انتبهتُ إلى لباس الكاكي لدى صالح وحميد. حين أصبحتُ على مقربة منهم، رحّبوا بي بطريقة، أشعرتْني بأنهم كانوا في انتظاري. بادرني مجيد:

ـ سألنا عنكَ في البيت، فأخبرتْنا الوالدة بأنكَ لم تعدْ من الكُلّيّة بعد.

ـ أعطونا عطلةَ تحضير للامتحانات، تبدأُ اليوم. سألتُمْ عني الوالدة؟ أرجو أن يكون خيراً.

ـ بالتأكيد خير.

قال مجيد،

ـ لدينا حديث أخوي معكَ. نفضّل أن يتمَّ في المقرّ. محمّد اقترحَ ذلك. إنه بانتظارنا، والمكتبُ قريب، كما تعرف.

حلّت الساعةُ التي كنتُ أتوقّعها. حاولتُ أن أتماسك، فلا يبدو عليَّ ضيقٌ، أو قلقٌ، أو خوف. استدرتُ، ومشيتُ معهم. كان مجيد إلى جانبي، في حين كان صالح وحميد وراءنا، وكأنهما يتجنّباني قدرَ الإمكان. ما المقترح الذي ينتظرُني في المكتب، على لسان محمّد البايسكلجي؟ وكيف كان وقعُ سؤالهم عني على أمّي في البيت؟ شعرتُ أن رأسي - بفعل التشوّش - يخلو من أية إجابة. ولكنني كنتُ متماسكَ الأعصاب. التشوّشُ في الرأس وحده. لا أعرفُ كيف ارتبطَ قلقي على أمّي بقلقي على الامتحانات. لا أريدُ هذا الأمرَ أن يشوّشَ عليّ استعدادي للامتحان. إنه توقيتٌ سيئ، ولعلّه مقصود. استعدتُ وجهَ أمّي، فوجدته لائماً. استعدتُ كاظم، وكنتُ أودّ لو كان موجوداً معنا الآن.

ـ هل هناك من سبب وراء استدعائي إلى المقرّ اليوم؟

سألتُ مجيد، الذي كان يمشي بترهّل؛ لأنه كان على شيء من السمنة. أجاب دون أن يلتفت إليّ:

ـ دائماً هناك سبب للحديث مع الآخرين.

من بعيد، لمحتُ ملاذ مع أمّها يعودان من التسوّق، على ما يبدو. كلاهما يحمل أكثر من كيس. كانت ملاذ تنظر إلينا، وتحدّث والدتها. لم أستطعْ بحُكمِ المساحةِ أن أتبيّنَ عينيها، وملامحَ وجهها. لا بدَّ أن غيوماً من الكدرِ أطبقتْ على الجمال الذي ينتسب إليّ، وأنتسب إليه. شعرتُ بشيء من الاعتداد. لمْ أبدِ التفاتاً واضحاً اتجاهها، وبقيتُ أتحدّثُ مع مجيد:

ـ هل أنتُم في المقرّ دائماً؟

ـ نتقاسمُ الوقت فيما بيننا. نحن كثيرون في "كرادة مريم" كما تعرف. دائماً لدينا أعضاء جُدُد، ولكننا نعرف بعضاً، كما تعرف. أهل الكرادة أصدقاء وأقارب مثل عائلة، كما تعرف.

انتابتْني رغبةٌ أن أسأله عن زهير، وعن عبّاس وآخرين ممّن أخذوهم من بيوتهم. ولكن مجرّد الرغبة أفزعتْني. لا أعتقد أني أحتاج أن أملأ الفراغَ بالأسئلة، فالمكتبُ لم يعد بعيداً عنا. ثمّ أن مجيد لا يبادر بالكلام من جانبه. سأحاول في المكتب أن أكون أكثرَ احتراساً من ردود الأفعال، أكثرَ احتراساً بالحديث، حتّى لو لم يكن إجابةً عن أسئلة. تذكّرتُ أمّي التي جفلتْ بالتأكيد، ما إن رأتْهم يقفون ببابها، ويسألون عني. شعرتُ بالذنب.

كان المقرّ يقعُ في واحدة من هذه الدكاكين، على الطريق الذي يصعدُ إلى جسر الجمهورية. على مبعدةٍ منه محلّ الآيس كريم. دخلتُه مرّة، وأكلتُ ثلاث كرات ملوّنة من الآيس كريم. قال مجيد، وهو يسبقني:

ـ تفضّل، ادخل.

كان في الداخل شخصان فقط، محمّد البايسكلجي، وآخر لا أعرفه، وكرسيّان صُفّا على الحائط. الجديد في المشهد، أو عليّ بالذات، أن محمّد كان يعلّق رشّاشة على كتفه الأيسر، في حين وضع الآخر رشّاشته المشابهة على طرف الطاولة المعدنية أمامه، إلى جانب تلفون أسود. كان الأخيرُ يجلس على كرسي متحرّك، في حين يجلس محمّد نصف جلسة على ركن الطاولة قرب الجدار. الأسلحةُ شَحنت جوَّ الغرفة بشيء، يستعصي عليّ وصفه، شيء من الحيطة، أو التوتّر في الهواء، أو في دمي. فهذه هي المرّة الأولى التي أرى سلاحاً على هذه المقربة مني. ألقيتُ تحيّتي، فوقف محمّد مرحّباً:

ـ وعليكم السلام. تفضّل، اجلس على الكرسي. هل ترغب باستكان شاي؟

ـ لا، شكراً. لا أستطيع أن أشرب شاي على بطن خاوية.

ـ نحن آسفين؛ إذ جئنا بكَ قبل وصولكَ البيت. أعدكَ ستذهب قريباً. لدينا حديث موجز معكَ.

رنّ جهاز التلفون الأسود فوق الطاولة. تناوله الآخر، وتحدّث، كأنه يُكمل حديثاً لم يكتملْ قبل وصولي:

ـ لا، بضعة نوّاب ضباط. لم يعدْ من أثر. بلغنا من الحزب أن الأمرَ انتهى دون مقاومة. نعم.

ثمّ أقفل التلفون. قال له محمّد:

ـ نفس الأخبار. ما من جديد؟

ـ أبداً. لو كان هناك شيء ما، لما بقينا في المقرّ.

استدار محمّد إليّ، بوجه فيه بقية من صفرة:

ـ نحن نستلم أخبارَكَ من كاظم. إنه أقرب أصدقائكَ، وهو يعزّكَ، ويثق بكَ. ونحن نريدُ مثله أن نعزّكَ، ونثق بكَ. من غير المعقول أن شخصاً مثلكَ يظلّ معطّلاً داخل رأسه، دون فعل. لقد سبق أن قلتُ لك ذلك. هذا ما علّمنا إيّاه الحزب. لو أني خُيّرتُ بين القراءة والفعل؛ لاخترتُ الفعل. الوطن يحتاج إلى الفعل الذي أُنجزه، لا الكتاب الذي أقرؤه.

تذكّرتُ لقاءنا السابق، وجملتَه التي أعادها الآن بالصيغة ذاتها. قلتُ بهدوء، حاولتُه جاهداً:

ـ هذا صحيح.

ولم أعثر على أية كلمة، يمكن أن تمطّ الجملة أكثر.

ـ جوابكَ لا يكفي. تعرف هذا. نحن نقترح عليكَ ما اقترحناه على الآخرين، الذين لا يملكون قدراتكَ.

ـ ما الذي تقترحه عليّ؟ كاظم يعرف أني لا أفهم في السياسة. قراءة الكُتُب هي كل ما أستطيع فعله؛ والكُتُب القديمة بالأخصّ، كُتُب التراث. وإذا كنتَ تريدني أن أكون نافعاً، فسأكون نافعاً داخل هذا الحقل. صحيح أني أقتصر على القراءة الآن. ولكني في يوم ما سوف أكتب في هذا الحقل. دراسةُ تراثنا خدمةٌ، لا يمكن إنكارها.

ـ أنت تتحدّث عن المستقبل. نحن - الآن - يهمّنا الحاضر.

الآخر الذي على الكرسي قال، موجّها الحديث إليّ، مع إشارة من يده:

ـ نحن يهمّنا المستقبل أيضاً. بل يهمّنا المستقبل، بالدرجة الأولى. إن كلَّ لبنةٍ نضعها الآن، إنما هي أساس لمستقبل، نؤمن به. الغرقُ في قراءة الكُتُب تُخفي نوعاً من الهرب، وقراءةُ الكُتُب القديمة تعزيزٌ لهذا الهرب. الهرب من الحاضر. من مسؤولية الحاضر. ونحن لا نستطيع أن نقفَ مكتوفي الأيدي أمام هرب الهاربين.

كان وجه الآخر، وحركةُ يده يُظهران انفعالاً، لم يعدْ كتمانه ممكناً. رأيتُه يقف على قدميه، يستدير حول الطاولة، ويواجهني على مقربة:

ـ نحن نعرفُ أنكَ غير سياسي، كما تقول. ولكنْ؛ هل يمكن أن تعقل أن إنساناً بعمركَ، وبكُتُبكَ يمكن أن يكون بعيداً عن السياسة؟ السياسة هي الخبز الذي تأكله كل يوم. وادّعاؤكَ بأنكَ لا تفهم في السياسة هو اتّهام للنفس بأنها نفس بليدة. لا أعتقد أنكَ تتقبّل تهمةً كهذه.

أقحم محمّد نفسه، وكأنه أراد أن يُضيف هامشاً، ويكتفي. قال يتحدّث معي، ويشير إلى الآخر:

ـ الأستاذ أحد مثقّفي الحزب. أريد - فقط - أن أجعلكَ على علم.

حرّكتُ رأسي مؤكّداً تفهّمي لذلك، في الوقت الذي كان كلامُ الآخر يرنّ في رأسي، ولا أجد له إجابة مقنعة. فكل ما قاله عني صحيح تماماً. الفرق أنه قاله بمعرض الاتّهام. أنا هاربٌ من الحاضر، والكُتُبُ ملاذي في هذا الهرب. هل يصحّ أن أعترفَ بذلك، وكأني أوافقه على أنها تهمة؟ ولكني

أوافقُه على أنها تستحقّ أن تكونَ تهمة أيضاً. كيف يتقبّل حاضرٌ أراه كريهاً، وأسعى إلى الهرب منه، موقفي هذا؟! يحقّ لهذا الآخر، أو أي آخر، أن يُمثّلَ الحاضر، ويدافع عن نفسه. شعرتُ أن رأسي يدخل في شرك، وأني أتهدّل كرداء خلِق معلّق في مسمار على حائط. انتبهتُ أني طيلة تخبّطي أحدّق برشّاش محمّد المعلّق على كتفه اليسار. سمعتُ الآخر يواصل:

ـ هذه ليست مهمّة المثقّف وحده.

استدار فجأةً إلى محمّد:

ـ الغرقةُ خانقة، يا رجل. دعنا نكمل الحديث في الخارج. هناك تيّار هواء، بالتأكيد.

وافقه محمّد متحفّزاً. خرجنا جميعاً من غرفة المقرّ، التي كانت خانقة فعلاً. فحرارةُ الظهيرة وصلت ذروتها. كان في الخارج مجيد، وصالح، وحميد. وكانوا جميعاً مسلّحين برشّاشات مماثلة. لمْ أستطعْ أنْ أُخمّن من أين جاءت إليهم. لم يُثر المشهد دهشتي. سمعتُ صوت الآخر يواصل:

ـ قلتُ هذه ليست مهمّة المثقّف وحده. الأخوان معنا، مجيد، وصالح، وحميد، ليسوا مثقّفين بالمعنى الذي أقصده. ولكنهم يعرفون بغريزة المسؤول جريمةَ الهرب من الحاضر.

مدّ يده إلى الكُتُب التي أحملها، وأخذها. شعرتُ أنه يأخذها بشيء من العنف:

ـ أنتَ على أبوابِ امتحانات. نحن نريدكَ أن تنجح، وتتفوّق. ولكننا نريدكَ أيضاً أن تكفّ عن الهرب. إن مَن يهرب من الحاضر يهرب منا، نحن الذين عرّضنا أنفسنا للموت من أجله.

رأيتُ، حين قال جملتَه الأخيرة، يلتفت إلى وجوه الآخرين. الآخرون عبّروا عن استجابة متحمّسة متوتّرة بعض الشيء. الطريقُ التي كانت غيرَ معبّدة في مخيّلتي، ترتسم الآن موحلة، وغير سالكة. رأيتُه يلتفت إلى محمّد قائلاً:

ـ قسيمة الانتساب، أرجوكَ.

دخل محمّد غرفةَ المقرّ على عجلٍ، وخرج مع القسيمةِ في يده. أخذها منه الآخر، وقدّمها لي، وهو يقول:

ـ لا تُشغل نفسكَ بها الآن. نريدها منكَ جاهزة بعد الامتحانات. أنتَ حُرّ في الاختيار، بين أن تواصلَ الهرب منا، أو تكون معنا. ولكلٍّ مقامٍ مقال، كما يقولون.

أخذتُ الورقة من يده، وشعرتُ أن يدي ترتجفُ قليلاً. طويتُها، ووضعتُها في جيب البنطلون. أظهرتُ بحذر رغبةً في المغادرة. بادرني محمّد:

ـ لا بد أنكَ جائع. نحن أيضاً. لكَ أن تذهب الآن، ونلتقيكَ بعد الامتحانات. نتمنّى لك النجاح.

شكرتُهم، وغادرتُ. شعرتُ أن فمي ناشف تماماً، بفعل الصمت ربمّا. هل دخلتُ المعتقل؟ رأيتُ أمّي تتحدّث معي من خلال القضبان. نفضتُ رأسي قليلاً. رأيتُ كاظم يغادر مطارَ بغداد بالطائرة إلى القاهرة. رأيتُ ملاذ ومصطفى يحتضناني من الجانبين. رأيتُ كتاب "مروج الذهب" في يدي. أشدّ عليه، وأتّجه إلى خارج ما، لم أتبيّنه، خارج يشبه متاهة بحث عن "مدينة النحاس". بحث عنها، أو هرب منها؟ لم أعدْ أميّز. رأيتُ كل ما من شأنه أن يشدَّ من عزمي، ولا يتركني رداءً خلِقاً معلّقاً في مسمار على حائط.

٨

قبل أن أدخلَ البيت، لاحظتُ أن ستارةً عُلّقت على نافذة الغرفة التي تُطلّ على الشارع. ستارةٌ فيها خطوطٌ ملوّنة متقاطعة، لابدّ أن أمّي اصطنعتْها من إحدى شراشف البيت، ووضعتْها اليوم بعد مغادرتي صباحاً. نحن لم نألف ستائرَ على نوافذِنا. كنتُ غائمَ الوجه دون شكّ. حاولتُ أن أكون طبيعياً قدر الإمكان. وإذا ما تخلّف كدرٌ على ملامحي، فبسبب حرارة الشمس، والجوع. دخلتُ البيت بتكاسل ظاهر، رأيتُ الجميع، باستثناء أخي، في غرفة الضيوف. وقفتْ أمّي تستقبلني، فيما الأخريات يتطلّعنَ إلى وجهها، ولا ينظرْنَ إليّ.

ـ تأخّرتَ، يمّه. الأكل جاهز. لقد سألوا عنكَ هذا الصباح. مجيد ابن غنية، وبعض أصدقائكَ. الذي جفّلني هو لباسهم الكاكي. ما كنا نهتمّ، لولا لباسهم الكاكي. هل قابلوكَ في الطريق؟ لقد تأخّرتَ معهم، أنا متأكدة. هذا تنغيص عيشة. ماذا يريدون منكَ؟

كانت الجمل تتسارع على شفتيها اعتباطاً. قلتُ لها، وأنا أحتضنُها:

ـ لم يحدث شيء، يمّه. لمَ كلّ هذا القلق؟ إنهم ليسوا غرباء، على كل حال. إنهم يفكّرون بدعوتي إلى الحزب، فاتحوني بذلك، وتحاورنا حول الموضوع. لكنهم أجّلوا كل شيء بسبب الامتحانات. أجّلوا كل شيء لما بعد الامتحان. هذا كل ما في الأمر. وهذا سبب تأخّري. أنا جوعان تماماً.

رأيتُ أكتاف الجميع تسترخي قليلاً، والدمَ يعود إلى وجوههم.

كنتُ ممغوصاً، فلم آكل بشهية. ظلّتْ أمّي جالسةً إلى جواري، تنظر إليّ، وتنتظر مني أن أقول شيئاً. لم أقل شيئاً. بعد أن ألقيتُ ملعقةَ الطعام في الماعون، رفعتُ رأسي إليها:

ـ أريد أن أتحدّث مع عامر بهذا الموضوع. إنه أكثر مني خبرة.

ـ لم يعدْ أخوكَ من العمل بعد. قلْ لي ما الذي سيحصل لو سجّلتَ معهم؟

ـ أن أكون واحداً منهم، يعني أن أتحدّث مثلهم، وأفكّر مثلهم، وأقوم مثلهم بمهمّات يومية كريهة إلى نفسي. طبعاً سيوفّرون لي وظيفة، ما إن أنتهي من الامتحانات، ويكونون هم أصدقائي الوحيدين. وحتّى لو توفّر وقتٌ خاصّ بي، فلن أستطيع أن أنصرف إلى كُتُبي، وقراءاتي التي أرغب فيها. يتوجّب عليّ حينها أن أكون شخصاً آخر، شخصاً ستحتاجين إلى وقت طويل للتعرّف عليه، والتآلف معه. هذه حقيقة ما سيحدث. عامر سيحدّثك عن هذا أفضل مني.

الغَصّةُ التي في حلقومي أشدُّ وطأةً ممّا ذكرتُ لأمّي. كيف يمكن لي أن أحدّثها عن هربي من الزمن الحاضر، منهم، والغرق عبر كُتُبي في الزمن الذي أنتصر له؟! كيف يمكن أن أحدّثها عن ملاذ ومصطفى، وقد دخلا معي الزمن الآمن؟! كيف أحدّثها عن "مدينة النحاس"، التي بعثرت أيَّ هدف لي مع الكُتُب إلا هدفها هي، وما ينطوي عليه من معنى غامض لا أُحسن فَهْمه؟! مَسَسْتُ بأصابعي وجهها الصامت الحلو، وقلتُ:

ـ صدّقيني، هذه أمور لا أهمّيّة لها. أريد - الآن - أن أنام قليلاً.

تركتْني، وسحبتْ باب الغرفة وراءها. وضعتُ وسادةً على طرف الكرويتة، وألقيتُ رأسي عليها. كانت الستارة نافعةً تماماً، فقد حجبتْ حدّةَ الضوء، وأغرقتْ الغرفةَ بظلّ مريح للعين. وحدها كانت المروحةُ السقفية تتحرّك ببطء. وفي رأسي تتحرّك مروحة أكثر حركة. محلّتُنا الصغيرة لم تعد مَنسية. لقد تخلّت عن عُزلتها دونَ مقاومة. والشبّان الذين كانوا يتنابزون بالألقاب، جفَلت مخيّلتُهم، واستيقظوا على دورٍ جديد، لا عهد لهم به، دورِ مسؤولٍ، يحيط معرفةً مرتابةً بتفاصيل الشوارع الأربعة التي تشتمل عليها المحلّة، وبالبيوت التي لا تتجاوز المئة. إنه دورٌ مسؤول، يرصد حركتها وأنفاسها؛ ليغذّيها من جديد بالمستقبل.، بحياة جديدة؛ ليحدّد لها هدفاً واضحاً. هذي السلطة التي تعلو قامتُها على الجميع، تعطي دوراً لكل فرد. دوراً بمقياس عادلٍ واحد، لا يعتمد اختلافَ قامات الأفراد، حتّى لو بدا دوراً مترهّلاً على قامة فاضل أبو عُلُص، ومضحكاً. ولكنْ؛ كيف سيبدو عليّ؟! إنهم يسعون الآن إلى إعداد واحدٍ لي. لن أبدوَ مضحكاً فيه، أنا واثق من هذا؛ سأبدو في أحسن أحوالي مثيراً للرثاء والشفقة.

بعد أكثر من ساعتين، استيقظتُ ناشفَ البشرة بفعل المروحة. كنتُ أسمع أصواتَ العائلة في الحوش. لابد أنهم يحتسون الشاي، ويتحدّثون عني. حين خرجتُ إليهم، كان أخي يتوسّطهم؛ التفتَ إليَّ ضاحكاً:

ـ التقطوكَ في مصيدتهم؟ تعالَ، وكلْ معنا كعك السيّد مع الشاي.

جلستُ إلى جانبه على كرويتة الخشب، وأخذتُ كعكة من الصحن بيننا. كان مذاقُ الزبدة فيها لذيذاً. قال لي بصوت خفيض هذه المرّة:

ـ لا تحملْ همّاً. ركّزْ على امتحاناتكَ. بعدها أعددتُ لك خطّة سَفَر بالقلم والمسطرة، لا تحتملُ هفوةً، ولا خطأ.

تطلّعتُ إليه مبتسماً:

ـ إنني أثق بخططكَ.

ـ سأقول لكَ ما برأسي، حين نكون وحدنا. يجب أن تبقى خطّتي خافيةً، حتّى على أمّي.

كان أخي عمادَ العائلة. يعيلنا بحرص المسؤول، منذ توفيّ أبي، وأنا - بعد - صبيّ. حين كنتُ أقترح عليه أن يجدَ لي عملاً، أيّ عمل يوفّر دخلاً يدعم دخله، أو يعفيه من مصاريفي الشخصية على الأقلّ، كان يُلحّ أن أنصرف إلى الدرس، ولا أشغل نفسي بهذا الأمر. فمصروف جيبي زهيدٌ على كل حال، ولا يُثقل عليه. كان يقول ذلك دائماً.

٩

بدأ الصيفُ يُرهق الناس بحرارته، وبشمسه التي لا ترحم. لكن الهواء ما يزال يخفّف عليهم، شأنَ الظلال، وطأتهما. النخلُ فوقهم يلوّح بذلك، في حركةِ السعف التي تبعث مع النسيم لألأةً، لا تكف عن الاستجابة للون الأفق: لألأةٌ فضيةٌ مشوبةٌ بصفرة الصباح، وفضيةٌ برّاقةٌ، لا شائبة فيها حين ينتصف النهار، وذهبيةٌ مشوبةٌ بحمرة وقت المغيب. وأشجارُ الكاليبتوس هي الأخرى بالغةُ الحيوية، لا تكفُّ أغصانُها، التي تشبه نبلةَ السهم في رشاقتها، عن اللألأةِ التي تحاكي لألأةَ آلافٍ من الأسماك الطائرة. وما من صعوبة على مخيّلة ابن "العبّاسيّة" من رؤية أسماك، تلصف حراشفُها وزعانفُها في الأفق. وشجرةُ التوت في البيت تكفل بظلالها استراحةَ الظهيرة، حتّى إن أمّي وعمّتي كانتا تفضّلان تناول غَدائهما فيها. ولكن ثمار التوت لم تنضج بعد. كنت أنا المُكلّف بصعود الشجرة، والتقاط الثمار الناضجة. تجمعها أختي أو زوجة أخي فيما بعد في صحن كبير، تغطّيه بنَثار الثلج، وتتركه على الأرض لمَن يأكل. وفي واجهة البيت، قبل أن يبدأ حقلُ الباذنجان، تتكوّر نبتةُ الشوك الخضراء، وتتلاحق على امتداد الحقل، وكأنها أسلاكُ حماية شائكة، ولكنْ؛ يقربها الجميعُ دون محاذير، ما دامت طريّة؛ لأنها تُطفئ لسعة الشمس في النسمة، وتبعثها باردة. ويظلّ ماءُ النهر ملاذَ الجميع، إنساناً وحيواناً، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً. ما من أحد يتجنّب الماءَ في المجرى، حتّى لو كان لا يُحسن السباحة،

ويُهدّد بالغرق. هناك كَرَب النخل اليابس يُشدّ على الظهر، وإطارُ عجلة السيّارة يُنفخ حول الخصر، وزورقُ القصدير يكفي فرداً، والزورقُ الخشبي يتّسع لجماعة. وأسطحُ البيوت بعد المغيب أحواضُ سباحة تنبض فيها النجوم. كل هذا إلى زوال، يقول لي لباسُ مجيد الكاكي، والسلاحُ الرشّاش على الكتف اليسار. كل هذا لن يُكتبَ له الدوام. إن "مدينة النحاس" التي أطلّت عليّ من كتابٍ، كانت تحملُ معها كلَّ الزمن الذي يُطمّعني في الانتساب إليه. الزمن الذي لم أسأل عن حركة توجّهه، وعمّا ينطوي عليه التوجّه من أسرار. كانت في تلاشي الهدف كفايةٌ. أطلتْ عليّ كالومض، وسرعان ما اختفت في الطبعة الحجرية، وكأن في خفائها دعوةً للبحث عنها. ومع أني أعرفُ بيقين أنه بحث عابث، وأنه محدودٌ برغبة شخصية، وأن هذه المدينة التي لم تأخذ من "مروج الذهب" إلا حيّزاً صغيراً، لم تكن إلا وليدةَ مخيّلةٍ لكاتب كثير الأسفار، ومحض حلم. ولكن الأمرَ لم يكنْ على هذا القدر من البساطة، كما يبدو. فالكُتُب التي بين يديَّ، وعزلتي المنقطعة لها، تكفي وحدها لحرماني كُلّيّةً من أيّ حقّ للدفاع عن النفس. فالحماسُ العاصف الذي يطوي هؤلاء بين جناحيه لا يسمح بالاستثناء، أو برعايةِ الرغبات العزلاء، خاصّة إذا كانت على هذا القدر من الغموض والإغلاق.

أنهيتُ آخر يوم من أيّام الامتحان، ورجعتُ إلى البيت، وكأني أشعر بخفّة طائر. لم تكن تُثقلني شكوكٌ ومخاوفٌ بشأن إجاباتي جميعاً. ثمّ إن الخطّةَ التي وضعها أخي بالمسطرة والقلم لسفري إلى الخارج، والتي كانت سرّيّةً، لم تعرف بها حتّى أمّي، قد أمّنتْ لي مخرجاً، لا يتوفّر لأحدٍ بيُسر. في ذلك اليوم الذي وعدني فيه بخطّة السفر، تبعني بعد صعودي السطح، وجلس على حافّةِ سريري، وقال كمَنْ أعدَّ مخطّطاً على طاولة بحث:

ـ المسألةُ يسيرة، أو هكذا آمل أن تكون؛ لأني أعملُ في دائرة الخطوط الجوّية، فلديّ سماحٌ بشراء تذاكر مخفّضة جداً لي ولعائلتي. وهذا يشملكَ طبعاً، هذا بشأن التذكرة. أما بشأن المصروف؛ فسأعطيك مبلغاً، قد لا يكون كافياً، وأنا لا أريد أن أُثقلَ عليّ وعلى العائلة. ولكنْ؛ بما أن المبلغَ الذي لديكَ أقلُّ بكثير من المبلغ الذي يحقّ لكَ كمسافر أن تحوّلَه إلى عملة صعبة، فلديّ صديق يحتاج تحويل البقية المسموحة، وهي ليست قليلة؛ لأن التصريف خارج البنك غير قانوني. وسيدفع لكَ مبلغاً يعادل الفرق بين التصريفين. سيكون سفركَ إلى فرنسا، كما تفضّل. ولا علم لي بشأن خالد، ابن عمّي، إذا ما يزال هناك. هذه هي الخطوط الأساسية، ما هو رأيكَ؟

كانت مفاجأة لم أكن أتوقّعها أبداً. ولكنها مفاجأة ذات وجهين. وجه مثير، ولا أستطيع أن أقول إنه مشرق، بالرغم من أنني أسعى إليه، وأرغب فيه. ووجه معتم خانق، ربّما بسبب ضعفي، وافتقادي إلى الجرأة والصلابة. وجه معتم لما سيرافق السفر، وما سيليه. مغادرتي إلى فرنسا تعني مغادرة أمّي، تعني مغادرة ملاذ ومصطفى، مغادرة الأهل. وربّما لن يتمّ لقاءٌ من جديد. لم أُضف مغادرةَ الكُتُب؛ لأن فرنسا، وكلَّ أوربا، تضمّ مكتباتٍ عربية عامرة، كما يُقال. ثمّ إني سأسعى جادّاً لتعلّم الفرنسية. سآخذ معي نسخةَ الطبعة الحجرية من "مروج الذهب" التي لديّ، إلى جانب أني سأطّلع على مخطوطاتها التي حقّقها باربيه دي مينار في المكتبة الإمبراطورية بباريس. ولكنْ؛ كيف يمكن ترميم الصدع الذي سيخلّفه الفقدان؟ حاولتُ أن أستدير إلى الوجه المثير، علّني أستعيد شيئاً من الحماس. لا بد أن ألتقي ملاذ. سأحتفظ بسرّ سفري عنها وعن مصطفى، كما احتفظتُ به عن أمّي والأهل. ولكني لا بدّ من أن ألتقيها. هكذا قرّرتُ ذلك اليوم. وفعلاً

التقيتُها في اليوم التالي. كنتُ مع مصطفى، الذي تركنا؛ ليعدّ لنا لفّتيْ كباب على عجل. كنتُ أحمل لها رواية "أنّا كارانينا":

ـ إنها موصولة بي بصورة ما. حمّى الحبّ قد لا تصحّ عليّ، فهي حمّى حارقة وتدميرية، وأنا حذر من ردود الأفعال. ثمّ إن الغموضَ في عواطفي يُثقل من تسارع نبضها، ويجعلها هادئة. وغموضُك في داخلي يجعل أقبيتي نصفَ مضاءة.

كنتُ أتحدّث معها، وكأني أقرأ في كتاب. وكانت هي تضحك، وتمنحني حيويةً مُفتقدة. يا لَسِحْر كل شيء فيها.

ـ مصطفى يقول إنكَ تفكّر في السفر ما إن تنتهي الامتحانات. أعرف العلّة وراء ذلك. لقد رأيتُكَ معهم، وأنتُم تتّجهون إلى مقرّهم في رأس الجسر. هل تعتقد أن هذا سبب كاف للتخلّي عن البلد؟

فوجئتُ بذِكْر السفر على لسانها:

ـ مجرّد فكرة. ولكني أعتقد أنه ليس كافياً للتخلّي عنكِ.

أخذتُ يدها على عجل، قلبتُها، وقبّلتُ راحتها، وكانت ساخنة. نظرتْ هي إلى باب الغرفة، واقتربتْ مني، واختطفتْ قبلة. توقّفتْ، ثمّ عادت لقبلة أهدأ، جعلتْني أشعر ببَلَل شفتيها على شفَتَي. عاد كلّ منا إلى مكانه، يرتجف، ويضحك. قلتُ لها:

ـ أودُّ لو نتحدّث طويلاً.

ـ سنفعلُ إذا انتهتْ امتحاناتكَ. أنا قلقة بشأنكَ، ولا أتوقّفُ عن التفكير

بكَ. مصطفى يعرف هذا. ولعلّ أمّي أحسّتْ به أيضاً. مصطفى قال إنكَ وجدتَ ملاذكَ في الكُتُب، وها هم يسعون لإخراجكَ منها عنوة. أكاد أفهم ما تسعى إليه.

ـ أو ما أسعى للهرب منه. على أني - في حقيقتي - لا أسعى لشيء. على العكس تماماً. لقد أخليتُ عالمي من كل هدف. الانتساب للماضي لا يتركُ مجالاً لهدف.

ـ أحببتُ انتسابكَ هذا. حاول مصطفى أن يقرّبه من فَهْمي، ولكني أحبّ أن أسمعه منكَ ذات يوم.

ـ أو أكتب لكَ، إذا لم تتحقّق فرصةُ الحديث.

دخل مصطفى يحمل صحناً، فيه لفّتا كباب بيت وخضار. كانت الرائحة مشهية. وقفتْ ملاذ، وتمشّتْ باتّجاه الباب:

ـ سأعدّ لكما الشاي. إنه طيّب مع لفّات الكباب.

١٠

بعد الامتحانات، كنتُ أصرفُ معظم ساعات اليوم مع الأهل. التقيتُ ملاذ أكثر من مرّة، ولكنها كانت لقاءات مبتورة. كنتُ مضطربَ المزاج، ولا أستطيع أن أُمسكَ بالوقت الذي يتبعثر من بين يدي، عن غير إرادة. أخي جاء بتذكرةِ السفر، وقد سبق أن أخبرني عن الموعد الذي اقترحه. قال إن لديه ٢١٠ دولار، جاء بها من الرجل الذي كلّفنا بتصريف مبلغ له. وسيضيف هو ٥٠ ديناراً؛ أي ما يعادل ١٥٠ دولاراً.

ـ المجموعُ معقولٌ لتدبير حالكَ في الأيام الأولى، إلى أن تعثرَ على عمل في واحدة من هذه المطاعم، التي تَستخدم الطَّلَبَةَ والعمّال الأجانب. عمل متعب، وقليل المورد، ولكنه يكفي لتوفير مصرف جيب، ويفتح لكَ باباً لمعرفة المدينة والناس واللغة. كل شيء هناك سيعتمد على شطارتكَ. سأحاول من جانبي أن أبحث عن عامر، إن كان في فرنسا ما يزال، أو أي شخص يعرفه الأصدقاء. سأرسل لكَ نتيجة الامتحان، وسأحتفظ منها بنسخة في البيت. لتكن تجربة في الأسابيع الأولى، فأنتَ في عطلةٍ على كل حال. ولكني أفضّل أن تكون أقوى ممّا عليه، وأن لا تفكّر بالعودة بفعل المشاقّ. أنتَ شابٌ، وتريد أن تكون كاتباً. لا تغفل هاتين الفضيلتين. لقد أخبرتُ أمّي بالموضوع، وقلتُ لها أن تحتفظَ به سرّاً الآن، وأن لا تخبر أختي ولا زوجتي، ولا أحداً ممّن تعرف، إلا بعد السفر. وسنقول جميعاً إنها سفرة

سياحة طوال العطلة الصيفية. وأنا لا أودّ أن تكون كذلك، أنت تعرف. ما من أحد منا يتمنّى ذلك. إنني لا أتوقّع خيراً من هذا البلد، ولا من أبنائه. لقد انقلب التاريخ على بُناته، كما تُقلب التربة. سيتخبّطون بدمائهم زمناً لا أعرف مداه. ولكنه سيكون زمناً طويلاً دون ريب. هذه ثمرةُ خبرتي، ولولاها لما تحمّستُ لمغادرتكَ. أنا على يقين من أن أمّي تشعر بكل هذا، ولا تعيه، كما أعيه. تشعره بغريزة الأمّ. عليكَ أن تعرفَ بأن الرسائلَ ستكون مُراقبة. وأن شبّانَ الكاكي لن يكفّوا عن السؤال عنكَ. سيطرقون هذا الباب مرّاتٍ ومرّات، وسيحقّقون معي على هواهم. ولكني أفهم لغتهم، وأعرف كيف أتعاملُ معهم، وأُرضيهم، أو أُقنعهم. أحبّكَ، وأُحبُّ كُتُبكَ.

عانقني فجأةً، حين قال ذلك. ضعفه هذا فاجأني تماماً. وعدتُه أن ألتزم بنصائحه.

ـ سأكتب رسائلي لكم تحت رقابتي، قبل رقابتهم. إن السياسة لا تعنيني من قريب أو من بعيد، أنت تعرف.

ـ أعرف، ولكن هذا سيكون مصدرَ إزعاج لهم. تخيّل الرئيس يخطب بحرارة على شاشة التلفزيون، فيما أنت تلعبُ طاولة مع صديقكَ، ولا تُعير لما يسمعون ويرون انتباهاً. سيثير هذا غيظهم بالتأكيد. أريدُك أن تسافر دون رجعة؛ لأنكَ شابّ، لا شأن له بالسياسة. إنهم لا يطيقون الذي يقفُ على مَبعدة، على التل. إنهم يفضّلونه سياسياً عدوّاً، على أن يكون مثلكَ. أما كُتُبكَ؛ فليست إلا دليلَ إدانتهم. حين أخبرتُ أمّي بقرار سفركَ، هل تعرف ما الذي قالتْ؟ "الكُتُب، يُمّه." هناك مَن يقرأ منهم، ولكنه يقرأ كطالب الامتحان. يفكّر بالدرجة التي تحقّق له التفوّق على الآخر. الأمرُ لن يقتصرَ على صراع الأحزاب مع بعض، كما رأيت في الظاهر. بل داخلَ

الحزب، كل حزب، حتّى لو لم يستحوذ على سلطةٍ بعد، ثمّة صراع داخلي دامٍ، يتّضح لك نزيفُه، أو لمْ يتضح.

قبل الامتحانات، زرتُ المكتبة لآخر مرّة. كنتُ استعرتُ الطبعة الحجرية لكتاب "مروج الذهب" قبل يومين من ذلك. أسلمتُ المفاتيح بحجّة مشاغل الامتحانات، ووعدتُ أن أواصلَ إدارة المكتبة بعدها. ولقد كذبتُ في الحالتين: حالةُ الاستعارة لكتابٍ، أعرف بأني لن أُعيدَه، وحالةُ عودتي المستحيلة بعد الامتحانات. هاتان كذبتان، تقتضيهما الضرورة.

بعد الامتحانات بأيامٍ معدودةٍ، كنتُ بكامل الاستعداد للسفر. قلتُ لملاذ بأني عند وعدي، وسأكتبُ لها الرسالة، التي أريدها وفية في التعبيرِ عن القلبِ الذي يحبّ، وعن العقلِ الذي يفكّر. كانت أمّي مصرّةً على أن تحشو حقيبتي بالشاي، ومعجنات "الكليجة" بالتمر. "ستكون معها قريباً منا." كانت تقول. ولكنها لا تكفُّ تُظهر شجاعةً في احتمال وطأة سفري على قلبها. "لم تعد صغيراً. على الأقلّ، سنفتقدكَ باطمئنان. لا أريدكَ هنا، فيأخذوكَ كما أخذوا زهيراً وعبّاساً. لم يصل خبرهما إلى الأهل حتّى اليوم. لا قدّر الله.."، كانت تقول، وتمسك بيدي. ولا أُخفي بأني، رغم ما كنتُ أُبديه أمام الجميع من استرخاءِ أعصاب ومشاعرِ خلاص، كنتُ منقبضَ القلب، أغرقُ في بحيرة أسى، أو أسبحُ ضدّ تيارِ ماء جارف. السفرُ جديدٌ عليّ، لم يخطرْ سابقاً على أيةِ خلية من خلايا كياني، وخاصة سفر اللاعودة هذا. كيف سأحيا الساعاتِ الأولى دون لسانٍ، ومع حواسّ مقموعة. ولكن انقباضَ القلب هذا ينشرح بين حين وآخر عن غبطةٍ ستيسّرُها باريس بالتأكيد. المدينة التي كانت تزوّدني، هي ومثيلاتها من مُدُن الغرب، بالأحلام. ثمّ إني لن ألتقي بفضل السفر بشبّان الكاكي، ورشّاشاتهم المعلّقة

على الأكتاف. لن ألتقي مرّةً، ولو مرّةً واحدة، بصديق انحرفَ لسانُه عن سياق الطبيعة، التي أملتْها عليه محلّةُ "العبّاسيّة"، إملاءَ ظلال النخيل والتوت. كنتُ أعرف استحالةَ التوفيق بين عبثي الخاصّ وهذا النظامَ الأبلهَ للأشياء والأفكار. لا أُحسن تبريرَ أيّ فعل، يتّصلُ بأهوائي الخاصّة، في المشاعر والأفكار. أو يتّصلُ برغبتي في البحثِ والتنقيب. وأنا على يقينٍ من أن "مدينة النحاس"، التي أحاول اقتحامَ أسرارها، أن هذا الشغفَ الصبيانيَّ كفيل بإيداعي في "قصر النهاية" إلى الأبد.

حين التقيتُ ملاذ آخر مرّة، أعطيتُها رواية "الساعة الخامسة والعشرون". قلتُ لها: "هذه حمّى اغتراب الكائن الإنساني." في داخل الكتاب، وضعتُ رسالتي مَطويّةً بعناية داخل مظروفٍ متوسّطِ الحجم. أخذتْ الكتابَ، واحتضنتْه، ولعلّها تحتضنُ الرسالة التي فيه، أو تحتضنُني في الساعة الأخيرة.

في يوم السفر الذي كان شديدَ التّكتّمِ والسّرّيّة، احتفظتُ بالطبعة الحجرية من كتاب "مروج الذهب" بين طيّاتِ الثيابِ في الحقيبة، وكأنني أودعُ دواءً للطوارئ. وغادرتُ المنزلَ مع أخي فجراً.

١١

"ملاذ،

أكتبُ هذه الرسالة، وأنا على سطحِ البيت، قبل أن تنحدرَ الشمسُ تماماً. سأواصلُ الكتابةَ حين تغيب، وحين تبدأُ النجوم في احتلالِ مواقعها فوقي. احتضانُ الليل هذا، واحتضانُ الكواكب يليقان بحبّي لكِ. ولعلّهما يليقان بهذه الرسالة، التي سأحاولُ فيها أن أقدّمَ نفسي لكِ على حقيقتها. لقد تعرّفتِ بما يكفي على شخصي، كإنسانٍ في حالة حُبٍّ، لا تشوبُه شائبة. حُبٌّ لفتاة، يقول إنها خرجتْ إليه من بين دفّتي كتاب، هذا لأنه إنسانٌ مُولعٌ بالقراءة، وقراءةِ الكُتُب القديمة على وجه الخصوص. وكإنسانٍ مفرطِ الحساسيةِ، بما يحدث حوله من اضطراب، يستشفّه من سرعةِ تغيّرِ سَحناتِ الأوجه، وانقلابِ الطبائع. وكإنسان حريصٍ أن يُبقي أخاك مصطفى صلةَ وصل بينه وبينكِ؛ لأن مصطفى له قسطٌ من حالةِ الحبّ هذه. فهو الآخر خرج إليه من بين دفّتي كتاب، كما يحلو له أن يُعبّر. ولعلّكِ عرفتِ أكثر من هذا بشأنِ زهده عن كلِّ ما يفيض عن حاجته، وزهدِه عن الحاضرِ بجملته. أمورٌ صرتِ عبر لقاءاتنا القليلة على معرفةٍ بها، بالرغم من أن هذه اللقاءات لم تكنْ كافيةً لاستكمال معرفتي بكِ. على أني أعرفُ صعوبةَ ذلك، لأنكِ في النهاية فتاة، لا فتى متاحٌ له أن يُعرّضَ نفسه لأكثر من إضاءةٍ في البيت، في الشارع، في المقهى، وكلِّ مجالات النشاط

المَدَني. ولكني مُكتفٍ منكِ بالقليل الظاهر، الذي عرفتُ. الجمالُ الذي أحسستُ به يكفل الكشف عمّا وراءَ الظاهر. جمالُ الوجه، غدائرُ الشعر، رشاقةُ الجسد، ورقّةُ حركته. ما وراء الظاهر عندكِ يطلعُ عليَّ لحظةَ أختلي بنفسي. إن حضورَكِ هذا لا يفارقني لحظة. ولعلّكِ تبتسمين، لو قلتُ بأن أجملَ هيئاتكِ في هذا الحضور أجدُها حين تطلع عليَّ من بين دفّتَي كتاب. يحدث هذا في البيتِ، وفي المدرسة، وفي المكتبة. رائحتُكِ ينفردُ بإيصالها النسيمُ الذي يتدفّقُ عليَّ من دجلة وحده، حين أكون في الطريقِ بين البيتِ والمكتبة، أو في السرير على السطح. ولن أبالغ إن قلتُ لكِ بأني مُرتوٍ منكِ، ولا أشكو من حرمان. نحن نتواصل حتّى في غيابِ بعضنا عن بعض. سنتواصل أبداً.

لعلّ مصطفى أوصلَ إليكِ، بصورةٍ من الصور، استعداداتي المتستّرة للسفر، أو للهرب إذا أردتِ الحقيقة. ولعلّه فصّلَ لكِ في شرح الدوافع، ولكني أشعرُ أنها ستظلّ دوافعَ مُدرَكةً، لأخرى غيرَ مُدركةٍ، آملُ أن أوصلَها لكِ، قدرَ ما أستطيع، في هذه الرسالة.

كنتُ جَرّةَ أعنابٍ تختمر، وفوقها فأسٌ موقوتةٌ لتهشيمها. كنتُ مجرى مياه جوفيةٍ، تُحاذي عروقَ شجرة حياتي الأرضية، ولكن أغصانَها عرضةً لهواء بالغِ التلوّث. كنتُ أريد تجنّب الحاضر، ولكنه تحوّل إلى كمائنَ، وأنيابٍ ومخالب. كنتُ أحتفي بكِ بلباس الشاعر، فألبسوني ثيابَ الكاكي عنوةً؛ وسيقولون: ألبِسْ مَن تُحبّ لباسَكَ، واحتفيا معاً بنا، نحن الذين سنأخذُ بيدكما إلى المستقبل. إنهم يتكفّلون إعادةَ صياغتي على قالبٍ غير جاهز، لا يعرفون، هم أنفسهم، صيغَتَه النهائية.

في غمرةِ قراءتي، وقعتُ في كتاب "مروج الذهب" للمسعودي على

قصّة "مدينة النحاس". لعلّي قلتُ لمصطفى حكايتي معها، أو لم أقل. "وأنها مدينةٌ كلُّ بنائها من نحاسٍ، بصحراء سلْجماسة، ظفر بها موسى بن نصير في غزوتِه إلى المغرب. وأنها مغلقةُ الأبواب، وأن الصاعدَ إليها إذا أشرفَ على الحائط، صفّق، ورمى بنفسه، فلا يرجع آخر الدهر." ثمّ وجدتُني أُؤخذُ بها عن غير قصد. وأُغمَرُ بأطيافها المضبّبة الغامضةِ عن غير إرادة. وأجدُها تلاحقني، وأجدُني أُلاحقها في آنٍ معاً، دون تمييز. ولم تتجسّدْ في رأسي كرمزٍ لفكرة، ولا في مشاعري كبديلٍ لواقع ما على الأرض. إنها أبعدُ من كليهما. وهي بالتأكيد ليست الماضي الذي ألوذُ به. وليست الحاضرَ الذي أهرب منه، ولا المستقبلَ الذي أتركه يفلُت من توقّعاتي. ولكن "مدينةَ النحاس" لها حضورٌ كحضور دورةِ الدّم في الجسد. إنها الجوهر الغامض.

لا أعرف إذا ما كنتُ قرّبتُها إلى مدركاتكِ؟ مع أنها لم تقتربْ من مدركاتي أنا. إن محمّد البايسكلجي، حين كان يتحدّث معي، هو والآخر، في مقرِّ الحَرَس لم يكونا بالنسبة لي كياناً من لحم ودم. بل قوةً غرائبيةً جلاتينيةً، اندلقتْ من المستقبل؛ وهلْ المستقبلُ إلا أحلام الحاضر، أراها تعودُ إليه مُجسّدة؟ إنهما كائنا المرحلة، وأنا لا أُحسن فَهْمهما، ولا أسعى إلى ذلك. إن مَن يسعى إلى فَهْمهما لابدّ أن له واحدةً من مصلحتين: مشاركتهما المسيرة، أو تجنّبهما. وأنا أتجنّبُ الخيارَيْن. أتجنّبُ الزمن الذي يجمعنا سويةً، الزمنَ الحاضر. "مدينة النحاس" جاءت أشبه بنذير لي، ولكنه نذيرٌ من نوع خاصّ. كان القائد الإسلامي موسى بن نصير يبعث للكشف عن سرّها عشراتٍ من جنودِه الأكثر جرأة. وفي كل مرّة، يتسلق الواحدُ أسوارها، يُطلُّ عليها، يصفّق، وربمّا يُغني كطائرِ اليَمّ، ثمّ يُلقي بنفسه، ولا يعود أبد الدهر. لم أكن شبيه موسى، ولا شبيهَ أحدِ جنوده الشجعان، بل أنا أشبه

بالكاتب الذي تخيّلَ الخبرَ وَكَتَبَهُ. أنا المؤلّفُ، إن أردتِ العبارة الدقيقة. أنا المؤلّفُ الذي فزِع ممّا كتب، أو دُهش من مخيّلته.

الموتُ أكثرُ الألغاز التي لم يعجزْ الإنسان عن تخيّلها أبد الدهر، لكنه لم يختبرْها. حين قلّبتُ الطبعةَ الحجرية من كتاب "المروج"، لم أقع على "مدينة النحاس". كانت شائهةَ الحروف، وكأن حجارةَ الطباعةِ التي نُقشت فيها قد اهترّت لحظةَ الطباعة لإخفائها. كان هذا الأمر قد أفزعني؛ ولم أُخبرْ أحداً بذلك؛ لأني لو أخبرتُ أحداً؛ لأصبحتُ هدفاً للسخرية، وربّما للريبةِ من صحّةِ عقلي. فأصبحتُ بدل ذلك أتساءلُ إذا ما كانتْ الصياغةُ التي وُضعت فيها هي ذاك التخيّلُ للموت، واختفاؤها عن ورقةِ الكتاب بهذه الطريقة هو ذاك اللغز، أعني لغزَ الموت بالذات؟ وهل محمّد البايسكلجي، ولباسُ الكاكي، وسلاحُ الرشّاش على الكتف هو التجسيد المرئي لما يسمّيه الشعراءُ الموت في الحياة؟ الموتُ الذي تراءى بالصورة لي وحدي، على هيئةِ المدينة المغلقة. إنهم كذلك بالنسبةِ لي. سأروي لكِ القسطَ الذي حدث لي معهم يوم التقينا في مقرِّ الحَرَس، ولم أروِه بعدها لمصطفى، ولا لنفسي. ففي مقرِّ الحَرَس الذي ذهبتُ معهم إليه، وبعد أن أعطاني الآخرُ استمارةَ الانتماء، مدَّ يده على الكُتُب التي كنتُ أحملها، وأخذها عنوة، وهو يبتسم. كانت طريقتُه محاولةَ إبلاغٍ عن جدّيّته، وخطورةِ شخصه في آن. صرتُ أنظر إليه، وأنتظر، دون أن أتركَ تعبيراً محدّداً في الوجه، على ما أعتقد. كنتُ لا أجرؤ على أيِّ تعبير. حين رأيتُه يقلّبها، ويقلّب أوراقها بعنف بين يديه، قلتُ له بمودّةٍ ظاهرة:

ـ كُتُبُ دراسةٍ، وكُتُبٌ استعرتُها للقراءة، أرجوكَ، برفق.

أجاب وكأنه يحدّثُ شخصاً آخر إلى جواره:

ـ لا أوراق. لا كتابات جديدة هذه الأيام. أنا شخصياً لديّ رغبةٌ في الاطّلاع على ما تكتبُه هذه الأيّام. إنك لا تقرأُ فقط، بل تكتبُ، وكتابتُك ناضجة. محمّد إلى جواري يعرف، قال له كاظم ذلك.

علّق محمّد:

ـ بالضبط، هذا ما قاله كاظم. وهو أقربُ أصدقائكَ.

قال الآخر، وهو ينظر تجاه محمّد:

ـ الفأر الذي يختلي بأوراقِه في ركنِه المعتم، لا بدّ أن يكونَ قد سوّدَ الكثير من الصفحات. لم يُخبرك كاظم إذا ما كانتْ من صنف القصّة، أو الشعر، أو المقالات السياسية. الجميعُ يكتبون في السياسة هذه الأيّام. أنا شخصياً حاولتُ مرّاتٍ عديدةً أن أكتبَ الشعر مثلاً.

ثمّ أعطاني الكُتُبَ، والتفتَ إليَّ بوجه مليء بالنوايا الغامضة، سائلاً:

ـ هل لي أن أسألَ لمنْ تكتب؟

كان يريد، على ما يبدو، أن يُعرّفني على جانبٍ من شخصه لحظةَ الغضب. أجبتُه محاولاً بجهد أن أكون حيادياً، ودونَ ردود أفعال:

ـ أكتبُ أحياناً. أكثر الأحيان أُهمّش على الكُتُب التي أقرأ، وهي في مجملها تهميشاتٌ وكتاباتٌ موجّهة للا أحد.

استدار بوجهه ثانيةً إلى جانب محمّد، وهو يقول بصوت خفيض:

ـ مَن يكتب للا أحد، لا فضل له على أحد.

كمْ أفزعتْني صياغتُه المتأنّية. ثمّ أكمل، وهو يحدّق في عينيّ هذه المرّة، ومُوتِّراً سبابةَ يمينه إلى تحت، ثمّ إلى فوق:

ـ هذه الأرض، هذا الوطن له فضلٌ على كلّ أحد. على كلِّ مخلوق يدبُّ على ترابه، ويتنفّس هواءه. كلُّ مخلوق منا مَدينٌ لهذا الوطن. مَدينٌ بالهواء الذي يتنفّس، والماءِ الذي يشرب، والطعامِ الذي يأكل، والثيابِ التي يلبس، والأملِ الذي يواصل العيشَ من أجله، والكبرياءِ التي يتبجّح بها، والكرامةِ التي يستظلُّ في فيئها، والشمسِ، والترابِ، والشجر.

كانت وتيرةُ صوته تتصاعد. لقد بدأ لاهياً، ثمّ تملّكه حماسُ الخطابة، فصار جدّيّاً:

ـ أين الاعترافُ بالجميل فيما تكتب، والمكافأةُ التي ينتظرها هذا الشامخُ أبداً؟

قال هذا بصوتٍ عالٍ نسبياً، وهو يرفعُ ذراعه اليمين، كمَنْ يشير إلى قمّةِ جبلٍ، يقع ورائي. ولعلّ الذهولَ وحده هو الذي جعلَني أستديرُ برأسي أنا الآخر إلى حيث يشير، ولقد أثرتُ بهذا الفعل الأبله ضحكةً مكتومة لدى محمّد، والآخرين الذين كانوا يحيطون بنا.

ـ الثورةُ التي لم تُلهمكَ الكتابةَ علّمتْنا الفعل. علّمتْنا المستقبل.

أحسستُ أنه أفرغَ الكلامَ الذي تعبّأ برأسه، ولذا؛ رغب، بدافع الحماس وحده، وبغير إرادةٍ بالتأكيد، أن يغادر. ولكن محمّد هوّن عليه هذه الرغبة قائلاً له، ومشيراً إلي:

ـ سيتعلّم الفعلَ مثلنا، بعد أن يُسلّمنا استمارةَ الانتساب.

ما أزال أتذكّر شتّى التعابير التي كانت تتبعّثُ على الأوجه، بفعل ردودِ أفعالٍ، تخرج من قوى داخلية مخنوقة، لا مُتنفّسَ لها، ولا يسعها الانتظارُ لأنْ تنفجّر، وتُحيلني، تُحيلُ المكان أشلاءَ وشظايا. إنهم الموت في الحياة.

سأسافرُ، ولا أُخفيكِ أن الاستعدادَ للسفر يبعث بي أسىً، يأخذ بي مدُّه بعيداً. فأنا أغادر إلى عالم، لا عُدّةٌ لي لاختباره. لا أعرفُ لغته، وليس لي كفايةً من مال، وأخلو من أيّ هدفٍ لمسعاي فيه. هذا الأمرُ يكشف عن افتقادي لأيةِ خليةٍ من خلايا المغامرِ في دورتي الدموية. في مرحلة المراهقة، كانت تأخذُ بي موجةٌ شبيهة بهذا الأسى. موجةٌ تحاصرني، تُحاصَرُ في داخلي، ثمّ تتنهّد. أرتقي السّلّم الخشبي بخُطى، لا يلحظها أحدٌ إلى السطح. وفي ركنٍ منه، أختلي بنفسي، وأبكي بصمت. كنتُ أطمئنّ إلى بكائي آنذاك، الذي كان يرفع بي خفيفاً إلى ما وراء سعفِ النخل حولي. يجعلني برأفةٍ في منأى عن رُكامِ السَّخام، الذي يلوّث حولي كلَّ مِفصل من مفاصل الحياة. كان هذا يحدثُ أحياناً، وبصورة مفاجئة. إلا أن الحياة حولي سرعان ما تعود ماءً، ونخلاً، وتوتاً، وزوارقَ، وأسماكاً، وأصدقاء. بكاءُ المراهقة أصبح أسى الشباب الآن. ركامُ السَّخام الذي كان يلوّث مفاصلَ الحياة صار اليوم حيّاً هو ذاته. تجسّد في أحياء يميّزون أنفسَهم بلباس رمزي. هم كلُّ الزمن الحاضر. سعيتُ إلى الهرب منهم إلى الزمن الماضي. ذهبتُ بعيداً في هذا الماضي، وللماضي طيّاتٌ، قد تبلغ الأسطورة. ولعلّي بلغتُ هذه الطيّة حين رأيتُ "مدينة النحاس". ولعلّ هذا كان مصدر فزعي.

الموتُ الفردي يبدو لي مَلهاةً سوداء. الفردُ يُدخله في أحلام يقظته، وأحلامِ نومه، ويصيّره غرائبياً، يشبه صورَ الكارتون. أما الموتُ الجماعي؛

فمأساويٌّ؛ لا يتّسع له الفردُ، ولا مخيّلتُه. إنه بحجم موت الله. والذي شحذَ حساسيّتي، حتّى أصبحتْ مَرَضيّة، هو هذا الموتُ الجماعي، الذي أراه رؤيةَ العين، والذي يسمّيه الشعراءُ الموتَ في الحياة. الموت الذي أطفأ روح الدعابة على ألسنةِ أبناء محلّتي المتواضعة، تلك الروح الكامنة في الأسطورة؛ والأسطورةُ طيّةٌ بعيدةٌ من طيّات الماضي، كما ذكرتُ لكِ قبل قليل. وأحلّ مكانها رطانةً على ألسنتهم دون روح، رطانةً يُمليها حاضر الغرائز المُتدنّية. إن "مدينة النحاس" التي في "مروج الذهب" مسّت شفرةَ حساسيّتي التي بحدّ الموسى. قلاعُ نحاس أُقفلت على معنى من معاني هذا الموت الجماعي. والذين سعوا للكَشْف عنها، وألقوا أنفسهم فيها دون عودة، لم يكونوا إلا شهوداً. هل كنتُ شاهداً أنا الآخر، فاحتجبتْ عني في الطبعةِ الحجرية؟ ستقولين ما أبعد مرمى مخيّلتكَ، أو ربّما ما أقربها عن الحقيقة. أنا الآخر أقول ذلك. ولكنْ؛ في النهاية، إذا كانت "مدينةُ النحاس" وَهْمَ رأسٍ، تدبُّ به الوساوس، فلا بد أن شفرةَ حساسيّتي الحادّة ليست وَهْماً. لقد مسّتْ وجودي الحيّ، فجرحتْهُ؛ ولعلّ هذه الرسالة ليستْ سوى شيء من نزف هذا الجرح.

إنني أهرب من مجيد وأخوته ومحمّد البايسكلجي والآخر الذي يتحدّث كخطيب، ومن الذين على شاكلتهم، من الآلاف المؤلّفة التى تتضاعف مع الأيّام. وهم- كما سبق أن ذكرتُ لكِ - لم يكونوا بالنسبة لي كياناً من لحم ودم؛ بل قوّةً غرائبيةً، جلاتينيةً، اندلقتْ من المستقبل؛ وهل المستقبلُ إلا أحلام الحاضر، أراها تعودُ إليه مُجسّدةً؟"

القسم الثاني

١٢

تمَّ كلُّ شيء بيُسر في مطار بغداد. في الطائرة، جاءني مضيّفٌ شابّ، وقال لي بصوت خفيض: "أنا صديق عامر، إذا احتجتَ أيّ شيء،" وذهب إلى نشاطه. رأيتُ الطائرة ترتفع في سماء صباحٍ صاحية. ترتفعُ، وترتفع، وتتلاشى المُدُن، ولم تعد الأرض أرضاً. عجبتُ من اللون الأبيض المشوبِ بالرماد، الذي كشفتْ عنه الشمس اللاهبة. جاءني المضيفُ ثانية، وقال لي: "تستطيع أن تسحبَ الستارة على النافذة، إذا ضايقتْكَ الشمس." قلتُ أحبّ أن أراقب الأرض. ضحك: "هذه حرارة الشمس، بين الطائرة والأرض." وغادر مبتسماً. كان دَويّ الطائرة أعلى ممّا توقّعتُه. الركابُ منشغلون ببعضهم، وكأنهم في مقهى. حاولتُ أن أقدّرَ عدد المسافرين هرباً، بحجّة السياحة مثلي. صرتُ أُنشّط فراستي، وأتأمّل الوجوه. هم يذهبون جميعاً إلى باريس. فاجأتْني حقيقةُ ذهابي أنا الآخر إلى باريس. لم تكن حقيقةً يسيرةً عليّ. بدأتْ تفيض بي موجةٌ من الأسى، مشوبةٌ بخوف، جعلتْ أوجهَ المسافرين تغيم قليلاً. خلال الوجوه الغائمة تأمّلتُ وجه ملاذ الذي كان يستدير إليّ واضحاً من مقعد بعيد، وكأنه يسعى إلى طمأنتي. حاولتُ أن أستعينَ بوجه أمّي أيضاً، فاستعصى. وجه عمّتي، وأختي، وأخي وزوجته، فبدت لي المحاولة مرهقة. همستُ بأذن مصطفى التي حاذت شفتيَّ: كُنْ مع ملاذ، اجلس إلى جانبها. سمعتُ صوت المضيف يقول لي: "جئتُ لك بعصير رمّان. بعد قليل سيُوزَّع الغَداء.

لا تنسَ، إذا ما احتجتَ شيئاً." ارتبكتُ قليلاً. كان الأسى يعتصرُ قلبي، فحاولتُ أن أهوّنَ الأمر على القلب: لمَ الأسى؟ أنت لم تهجرْ زمناً حاضراً تنتسب إليه، فهل تنتسب لأرض حاضرة؟! على أن محاولةَ الاقناع بدت لي مرهِقةً، فهجرتُها إلى حقيقة، وجدتُها أكثرَ تهويناً على القلب: إنني كائنٌ مشرّد في "العبّاسيّة"، في بغداد، وسأكون كذلك في باريس. مشرّدٌ أُرسلُ بخطواتي مع الريح دون هدف. إذا لمْ تجد ركناً يؤويكَ، فلأنكَ لا تبحث عن مأوى؟ استعدتُ التوحيدي، والمعرّي من كُتُبهما، فأشاعا بي رضىً واطمئناناً نسبييْن. رأيتُ صينية الغَداء تحطّ أمامي، بصحونٍ صغيرة عدّة، وشممتُ رائحته، وكانت مشهية. ظلّت المضيفةُ فوقي واقفةً، مبتسمة: هل تشرب خمرةَ، وعصيراً، وماءً؟ طلبتُ عصيراً، وشكرتُها.

كنتُ أعددتُ دليلاً على ورقة، أتابعُ فيه ما يتوجّب عليّ فعله في مطار باريس: قطار ينقلني إلى قلب باريس. هناك الكثير من الفنادق الصغيرةِ الرخيصة حول محطّة القطار. أستقرُّ في واحدةٍ منها لأسبوع، على أقلِّ تقدير، أحاول عبر ساعاته أن أتعرّفَ على المدينة، آلفَها، وأبحث عن عمل في واحدة من هذه المطاعم. فرص العمل في المطاعم أكثر، فلا تشغل نفسكَ بمقاهيها الكثيرة، قال لي أخي. ولا تنسَ العرب الأفارقة، فهم سَكَنَةُ باريس، ويحرصون على التحدّث بالعربية. وفعلاً تعرّفتُ على شابّ مغربي، يعمل في الفندق المتواضع الذي أقمتُ فيه. قال لي في اليوم الثاني من إقامتي: تعالَ نأكل طاجيناً في مطعم مغربي قريب. كان يحاولُ أن يتحدّث بالفصحى، وكنتُ أرى أن العربيةَ تُرهقه، فأشعر بالحرج. فاتحتُه ونحن في المطعم المغربي بحاجتي إلى العمل. قال إنه يعمل في الفندق الذي أُقيم فيه منذ سنوات، ونصحني بمواصلةِ الإقامة فيه، فهو فندق نظيف نسبياً، مقارنةً بالفنادق الرخيصة. نصحني أيضاً أن أتجنّب

العمل في الفنادق، فهو مُرهق، ويأكل وقتكَ كله. العملُ في مطعم متوسّط الحال أنسب لكَ. هل جئتَ للدراسة؟ قلتُ له لا، ولكني ربّما أحاول تعلّمَ اللغة فقط. قال بأن هذا أفضل، وسيوفّر لي وقتاً للعمل والحياة؛ رغم أن الحياةَ هنا تُضمَر، وتتلاشى مع الزمن. قال ذلك، وفي فمه ابتسامةٌ، أعتقد أنها كانت ساخرة. لم أشعر باستجابةٍ مبالية في داخلي. بدا لي أن لي حياةً لا تُزهر، ولا تُضمَر. حياة من طينة مختلفة. تذكّرتُ رغبةَ أن أقول بأن حياتي تخرج إليّ من الكُتُب، ولكني جفلتُ من مجرّد التفكير بذلك. هذا يسهّل عليّ مع مصطفى وملاذ وحدهما.

بعد أيامٍ مخمّسة من البحث الذي لم يُوصلني إلى نتيجة، أخبرني الشابّ المغربي بأن ثمّة عملاً في مطعم ينتظرني، بواسطة صديق مغربي له. المطعمُ فرنسي متواضع، لا يفتقد إلى أناقةٍ ونظافة، وإلى جانبيه مقاه عدّة، فوقها يترامى مبنى عامر بالشقق السكنية. هناك ثلاثةٌ من العرب يعملون في مطبخ المطعم، ولعلّه الأمر الذي سهّل استخدامي، لأن اللغة لم تعد مشكلة. هناك عاملان آخران، فتاة وشابّ إيطاليان. والجميع كانوا، رغم مشاغل العمل الذي لا ينقطع، من توزيع الصحون المُعَدة بأناقة وفق الطلبات على الورق، إلى غسلها بأحواض الماء الساخن فيما بعد، لا يتوقّفون عن المحادثةِ الضاحكة. والذي أذهلني أنهم جميعاً يتنقّلون في محادثتهم بين اللغة الفرنسية والإيطالية، وأحياناً العربية بطواعية. بعد أيّام، صرت أتجاوز صمتي ببضع كلمات عربية، وأحياناً أتجرّأ بأخرى فرنسية وإيطالية، ألتقطها بحرص من أفواههم. كانوا شبّاناً بالغي الوضوح، بالنسبة لي، على خلاف ما كنتُ أتوقّع من مدركاتي الجافلة.

لم أترك الفندقَ الذي أقمتُ به قرب المحطة، فقد كان يناسبُ

دخلي، خاصة بعد أن توفّرتْ لي غرفةٌ أصغر بكثير من الأولى. سريرٌ مُفرد تحت نافذة صغيرة عالية، تكاد تحاذي السقف، ولا متّسعٌ لحقيبة السفر، فحشرتُها تحت السرير. على الجدار مشجبٌ خشبي، أعلّقُ عليه ملابسي ومنشفتي الصغيرة، قبل أن ألقي بنفسي متعباً على الفراش. البيجاما كانت تذكّرني كل مساء قبل النوم بالأهل، وكأنها قماشةٌ خُصّت بها "العبّاسيّة" وحدها. الحمّام والتواليت خارج الغرفة. ووجبات الطعام الخاطفة، عادة ما كانت تتمّ في مطبخ المطعم. على الفراش، كنتُ أقرأ وأكتبُ الرسائل قبل النوم. كان الشابّ المغربي الذي يعمل في الفندق يزوّدني بالكُتُب العربية. قال إنه غير مَعني بالقراءة، وهذه كُتُبُ زوجته، من مكتبتها البيتية الصغيرة، أو مُستعارة من آخرين. العرب في باريس هم أكبرُ الجاليات الأجنبية. في يوم الاثنين، يوم عطلتي، كنتُ أذهب معه إلى الحيِّ العربي، ونأكل في مطاعمه الطاجنَ والكُسكُس والحلويات، ونختُمها بشاي مطعّمٍ بالنعناع في مقهى. مع رائحةِ النعناع، كنتُ أتذكّر شاي البيت المخدّرِ بحسرة.

مضتْ أشهرٌ، وأنا أحصد الكلمات الفرنسية من أحاديث العاملين، وأخزّنُها في حافظتي، ولا أنقطعُ عن قراءة قُصاصاتِ الورق التي أقتطعُها من الصحف والمجلات، مستعيناً بقاموس فرنسي عربي صغير. كنتُ أشعر أني أتعلّم، وأكتبُ كلَّ ذلك في رسائلي للأهل، ولمصطفى وملاذ. في رسائلي لمصطفى، لم أكن أتحرّجُ من تضمين ورقة خاصّة لملاذ، أقول فيها بأن عيني لا تقع على فتاة فرنسية إلا وتحلّ هي محلّها. الماضي يحلُّ مكانَ الحاضر. وأودّ لو أكتب: والكتابُ يحلُّ مكان شبّان الكاكي، ولكني لا أجرؤ. كنتُ أتجنّب الحديث عن كل ما يمسّ السياسة، وانقلاب الناس، وانقلاب الحياة العامّة. كانت تصلني رسائلُهم، المحاذرةُ هي الأخرى.

كنتُ أحاول أن أقرأ ما بين السطور، كما أتخيّل محاولتهم هم أيضاً. ولكن رسائلَهم - على الأغلب - قليلةٌ، وأحياناً نادرة. وأظنّ أنها كانت تُعرّض للرقابة والإهمال، أو الضياع في الطريق.

في العمل، كانت الفتاةُ الإيطالية كثيراً ما تعزّز لدي الثقةَ بتعلّم الفرنسية. فهي وحدها التي كانت تتحدّث معي لهذا الهدف. تتحدّث أحياناً ببطء ووضوح، وكأنها معلّمةٌ داخل الدرس. وكنتُ أحبّ ذلك منها، فقد كان تصرُّفُها يوحي لي بسعة أفق ومعرفة. لم تكن تتمتّع بجمال يضاهي طيبتها. أقصر مني قامة، وتكبرني قليلاً، سنة أو سنتين. وفي ملامحِ وجهها شيء عربي، حتّى دفعني الفضولُ إلى أن أسألها إذا ما كانت من سيسيلي (صقلية). أكدتْ لي أنها من الجنوب الإيطالي، ولكنْ؛ ليستْ من سيسيلي. الألفةُ بيننا وفّرت لنا فرصةَ أن نتعشّى سوية بعد انتهاء العمل. مع الأيّام، صارت الفرصة تتكرّر، وعادةً ما ترغب أن أجرّبَ معها البيتزا. وهي أكلة، وجدتُها غريبة أوّل الأمر؛ لأنها تُشبه قرصةَ خبز التنّور، ولكنْ؛ مدهونة على السطح بالجبن ومعجون الطماطة وشرائح لا تكاد تُرى من اللحم. قلتُ لها بأن الأهل يعملونها مخلوطةً باللحم، والبصل، وخضار البقدونس والتوابل. بعد لقاءات من هذا النوع عدّة، اقترحت عليّ التالي:

ـ لمَ لا نبحث عن سَكَن صغير مشترك؟ سيكون أقلّ تكلفةً على كلينا، وأكثرَ نفعاً. وأنت لا بدّ تعرف مقدارَ الفرق بين غرفة الفندق الرخيص والسَّكَن في بيت، يخصّكَ وحدكَ. حتّى لو كنا اثنين، ولكننا أصبحنا أصدقاءَ كفايةً، وشاغل القراءة لديّ ولديكَ سيجعلنا لا نكفّ عن الحوار. نقتل الوقت بالحوار.

قالت ذلك بحذر مَن يتهجّى نصّاً مكتوباً. أبديتُ لها غبطتي بالمقترح،

ووعدتْني بأن أعتمدَ عليها في هذا الأمر، فهي تعرفُ باريس، وتعرف الأحياء الأنسب، والتي لا تبعد كثيراً عن المطعم الذي نعمل فيه. بعد أيّام، وعلى مائدة صغيرة في المطعم الإيطالي ذاته، وأمام صحنيْ البيتزا، أخبرتْني عن مُقترح للسَّكَن في غرفة واسعةٍ داخل بيت مغربي، مع تواليت وشاور خاصّ بها:

ـ أقترح هذا السكنَ كخطوة أولى، لأنكَ لن تنقطع عن العربية فيه، ولا عن الفرنسية معي ومعهم، وبكلفة أقلّ. ولتكن خطوة أولى، ما رأيكَ؟

ـ إنني أرحّبُ بكل ما تقترحين، ما أطيب قلبكِ.

كانت علاقتُنا قد توطّدت كرجل وامرأة، بصورة لا مباشرة فيها. حتّى قبل أن نقبّلَ بعضاً، أو ننامَ مع بعض. ولعلّ مجرّدَ تصوّر الخطوة الأخيرة كان مبعثَ اضطراب في داخلي، لا سبيل إلى فَهْمه، والسيطرةَ عليه. حين انتهينا من الطعام، أخذتْ أصابع كفّي، واحتضنتْها في راحتها:

ـ لديّ في البيت شاي إنكليزي بلون أسود، لعلّه قريب الشبه بالشاي العراقي، الذي أخبرتَني أكثر من مرّة بأنكَ تفتقده، سأتركُ إعداده لكَ. أحبّ أن أتعلّم طريقتكَ أنا أيضاً. غرفتي ليست بعيدة من هنا.

وقفتْ، ووقفتُ على الإثر، وتبعتُها، وكأني مُقاد. حاولتُ على امتداد خطواتنا أن أستحضرَ أُلفتنا التي تكوّنت عبر أحاديث ولقاءات كثير. الصديقة المقرّبة التي تحبّ القراءة. كنتُ أحاول بهذا الاستحضار أن أُهوّنَ على مشاعري صحبتَها إلى غرفتها، إلى سريرها. ولعلّ هذا ما سيحدث! شعرتُ أن أمراً كهذا يحتاج إلى استعداد طويل من قِبلي، ومليء بالتفاصيل. كنتُ أجرجر خطواتي خلف الصديقة الإيطالية، ـ تخيّلتُني أكتب

هذا إلى مصطفى وملاذ ـ إلى غرفتها في بناية سَكَنية، لم تكن بعيدة عن المطعم فعلاً. دخلتُ وراءها المبنى، وكان قليلَ الإضاءة، رغم عتمة الليل. وفي الطابق الأوّل، دخلتُ وراءها ستوديو، لا يخلو من سعة وأناقة، ويضمّ سريراً رحباً، طاولةً في الجوار مع كرسيّين، وجهازَ تلفزيون صغير جداً، وعلى رفّ الشبّاك الواسع نسبياً صُفّةٌ من كُتُب، لعلّها فرنسية وإيطالية. لا أعرف لمَ صاحبني الإحساس الغريب بأني ما أزال أكتب ما يحدث، وبتفصيل، إلى مصطفى وملاذ؟ استيقظتُ على صوت الصديقة الإيطالية، وهي تدعوني للجلوس على واحد من الكرسيّيْن، فيما ألقتْ بنفسها على السرير، وهي تتنهّد عن تعب. "ساعات عمل، وعشاء بيزا. لا بدّ أنهما واجب مرهق." دقائق من الصمت، ثمّ سألتْني دون أن تستدير إليّ إذا ما كنتُ أرغب أن أستلقي أنا الآخر، وأشارتْ بذراعها إلى جوارها. السريرُ رغم صغره يتّسع لكائنين بائسين. شعرتُ أن هاجسي هذا يصدر عن يدي، وهي تكتب، وكان مصطفى وملاذ يقرآن، ويبتسمان. قلتُ لها إني سأفعل، وخاطبتُها بكلمة "سينيورا" عن غير وعي. ولكن ذراعها الممتدّ باتجاهي، وضحكتَها الخفيضةَ التي تُعلن عن ألفةٍ وصداقة دافئتين، لم تتركا للرغبة الحبيسة فرصةً للتردّد. نزعتُ حذائي، وتدحرجتُ إلى جانبها، وكنتُ أسمع نبض قلبي يسبقني، الأمرُ الذي أشعرني بالحرج. قبّلتُ كتفَها العاري، وألقيتُ بفخذي المستور ببنطلون الجينز على حوضها الذي وجدتُه سهلَ الاحتضان. نظرتُ إلى عينيها، علّني استشفُّ ما يحفّز لدي الجرأةَ على التصرّف العفوي، كانتا مغمضتين. لم تفتحهما؛ لأنها كانت تنتظر. قبّلتُ فمها، ففتحتْ لي شفتَيها. شرعتُ أنا أفتح أزرار البنطلون الجينز، وقد تطلّب الأمرُ مجهوداً، انتزعتُ البنطلون من ساقي، ثمّ ألقيتُ به بعيداً.

لم أقلْ لها إنها المرّة الأولى التي أمارس فيها الجنس مع امرأة، بكل

هذه الحُرّيّة. ولكنها، كما أعتقد، استشفّت كلَّ هذا من لمستي المتردّدة، من هستيريا حركتي التي لم تكنْ تخلو من فزع، وأنا أعرّيها، وأقبض على نهديها، ومن نهاية الرغبة التي جاءتْني سريعاً. احتضنتْ رأسي، وضمّتْه إلى صدرها، فأيقظتْ بي طفولةً من سبات طويل، استعدتُ به لمسةَ أمّي البعيدة. ولكنني لشدّ ما شعرتُ بالخجل المشوب بالمرارة، فاعتصرتُها أنا الآخر، وكأنني أبادلها حنواً بحنو. ولكن يقيني غير المتردّد من سعةِ روحها وعطفها، أضفى عليّ في تلك اللحظة شعوراً بالغبطة، وكأنني أُلقي حجراً في بئر صحراوي، فأسمع صدى مياه هناك.

هل تُراني ما أزال أواصل الكتابة لهما؟

هما يعرفان مثلي، أن الماضي مفرطُ الحساسية. مستعدّ أبداً لتعزيز حضوره الحاسم مثل دائرةٍ تامةٍ، لا يشكّلُ الحاضرُ، أو المستقبلُ فيها إلا نقاطُ تماسّ عابرة. ولفرط حساسيّته سرعان ما يخذله النسيان، أو نيّةُ الحاضر الفاسدة، نيّة الإنكار والتشويه أو الإلغاء. ولهذا تبدو كلُّ الأناشيد والشعاراتِ باسم المستقبل، وهي تتضمّن أمراً بالحَجْرِ على الذاكرة، أسلحةً معدنيةً كالرشّاشات المعلّقة على أكتاف الحَرَس بلباس الكاكي. سطوة الفرد الزائل. سطوة الحرب. ولكن روحَ الماضي كله، صوتَه الذي يشفُّ واضحاً، يكمن في كتاب من الكُتُب، في نصٍّ من النصوص؛ حيث يتلاشى فيه الجوهرُ المادّي جميعاً مثل الحُلم.

صرتُ أسترجع كل تفاصيل مغادرتي المنزل، في ذلك الفجر الصيفي نصف المضاء، وجهَ أمّي الذي ابيضَّ بفعل الجزع، وحقيبتي المثيرةَ للشفقة، والنخيلَ المتعامدَ أمام منزلنا، وقد شغلت الوثباتُ الرقيقةُ للأشباح المتخفّية سعفاتِه الداكنةِ الخضرة.

أشعرتْني النظرة الأليفة للفتاة الإيطالية بالذنب. فأنا أعجز من أن أملأ الهوّةَ الفاغرةَ بيننا بالضوء. لم أكشف عن حقيبتي الخاصّة، وأعرّفُها على محتوياتها. فلي، وهذا ليس استثناء، ماض مكتنزٌ، وهويةٌ نازفة. ولكنْ؛ هل تملّكها الشعور بالذنب، وهي تنظر إليّ؟

قلتُ للشابّ بالرداء الكاكي:

ـ كُتُبٌ استعرتُها للقراءة، أرجوكَ، برفق.

أجاب، وكأنه يحدّث شخصاً آخر إلى جواره:

ـ لا أوراق، لا كتابات جديدة هذه الأيّام؟ أنا شخصياً لديّ رغبة في الاطّلاع على ما تكتبه. إنكَ لا تقرأ فقط، بل تكتب، وكتابتكَ ناضجة....

ـ بالضبط، هذا ما قاله كاظم. وهو أقرب أصدقائكَ.

ـ الفأر الذي يختلي بأوراقه في ركنه المعتم، لا بدَّ أن يكونَ قد سوّد الكثير من الصفحات.

أعطاني الكُتُبَ، والتفتَ إليّ بوجه مليء بالنوايا الغامضة، سائلاً:

ـ هل لي أن أسأل لمنْ تكتب؟

ـ للا أحد.

ـ مَن يكتب للا أحد لا فضلَ له على أحد..... هذه الأرض، هذا الوطن له فضلٌ على كلّ أحد. على كل مخلوق يدبُّ على ترابه، ويتنفّس هواءه. كلّ مخلوق منا مَدين لهذا الوطن. مَدين بالهواء الذي يتنفّس، والماءِ

الذي يشرب، والطعامِ الذي يأكل، والثيابِ التي يلبس، والأملِ الذي يواصل العيش من أجله، والكبرياءِ التي يتبجّح بها، والكرامةِ التي يستظلّ في فيئها، والشمسِ، والترابِ، والشجر.... أين الاعترافُ بالجميل، فيما تكتب، والمكافأة التي ينتظرها هذا الشامخ أبداً؟

قال هذا بصوت عالٍ نسبياً، وهو يرفع ذراعَه اليمين، كمَنْ يشير إلى قمّة جبلٍ، يقع ورائي. استدرتُ برأسي أنا الآخر إلى حيث يشير، فضحك الجميع على بلاهتي..

ـ الثورة التي لم تُلهمكَ الكتابة، علّمتْنا الفعل. علّمتْنا المستقبل.....

سمعتُ الفتاة الإيطالية تقول لي:

ـ ماذا؟

التفتُّ إليها، وكأني أسمع صدى مياه البئر ثانيةً، مُتمتماً من بين شفتين ناشفتين:

ـ لا شيء....

ثمّ استعدتُ أحضانها منكسراً.

١٣

استعدتُ "مدينةَ النحاس" فجأة. جاءت مُثقلةً هذه المرّة بمعانٍ، لم آلفها فيها. فهي لم تعد مادّة على ورق، تنتظر مَن يملأ فراغاتها، ويمنحها الصورةَ المُحقَّقةَ الأمثل، بل أصبحت على أكثر أشكالها كمالاً، وشغلتْ حيّزاً، لا يتزعزع، ولكنْ؛ في ماضيي أنا. أصبحتُ حين ألتفتُ إلى الوراء، أجدُها على امتداد بصري، وقد استحوذتْ على الكوكبة غير المستقرّة، التي هي ذاكرتي. مدينةُ النحاس، والقَدَرُ الذي يحيط بالصاعد إليها أن يُصفّقَ، وأن يرمي بنفسه، فلا يرجع آخر الدهر.

حَدَثَ هذا مباشرة، بعد زيارتي للمكتبة الإمبراطورية الوطنية بباريس.

صديقتي الإيطالية اقترحتْ عليّ، في الليلة التي ضمّنا فيها فراش واحد، أن أسكن معها، ونتقاسم أجار الاستوديو فيما بيننا. هذا إذا ما كنتُ أحببتُ الاستوديو، بالرغم من صغره قياساً للغرفة الواسعة التي اقترحتْها، فيما سبق. اتّفقتُ معها دون تردّد. كان الاستوديو في الحيّ رَقْم ١٣ من أحياء باريس العديدة. في اليوم التالي، وفي طريقنا إلى العمل، أوضحتْ لي الكثيرَ من معالم الحيّ، هنا المطاعمُ والمقاهي والأسواقُ رخيصةٌ نسبياً، مقارنةً بالأحياء الأخرى. ونستطيع أن نقطعَ الدرب إلى العمل على الأقدام. رياضةٌ ممتازةٌ، قد تستغرق قرابة النصف ساعة. قلتُ لها ما أيسرَ ذلك، فأنا في بغداد أمشي أكثر من خمسِ ساعات في اليوم الواحد! وضحكنا

سوية. نهر "السّن" ليس ببعيد، وأنا بطبعي أحبُّ ماء النهر. قلتُ لها إن نهرَ دجلة في "العبّاسيّة" ثلاثة أضعاف هذا النهر عَرْضاً. ولا أعتقد أن "السّن" يحتوي على ثروة سمكية. وحدّثتُها بحماس عن السمك النهري، ومحبّتي له حيّاً. قلتُ لها إن الأسماك ترحلُ دائماً ضدّ التيّار، تقاومُه؛ لتعود إلى النبع، إلى الماضي. وحاولتُ أن أقرن نفسي برغبةِ الأسماك للعودة إلى الماضي، ولكني عدلتُ خشيةً من عدم قدرةٍ، أو رغبةٍ لديها لمتابعة موضوع على هذا القدر من التعقيد.

في الطريق، رأينا مبنىً، يرتاده الناس. قالت لي صديقتي الإيطالية إنه مبنى مكتبةٍ محلّيّة. من السهل أن نسجّل فيها، ونستعير كُتُباً. وربّما تتوفّر فيها حتّى الكُتُب العربية. في باريس عرب كثيرون، كما تعرف. قلتُ وكأني أواصل جملتَها التي أحسستُها سِحْرية: أعرف، وربّما تضمّ مخطوطاتٍ قديمة. مخطوطات عربية قديمة. لم أستطع أن أتواصلَ معها، وهي تتحدّث. لقد رأيتُ مصطفى وملاذ يقرّبان أذنيهما من شفَتيّ، وأنا أهمس: مدينة النحاس، داخل كتاب المروج، داخل هذا المبنى! أحفظ رَقْم المخطوطة من بغداد. واسم الرجل الذي حقّقها وطبعها في فرنسا. التفتُّ إلى صديقتي الإيطالية متسائلاً:

ـ هل سمعت بالمكتبة الإمبراطورية الوطنية في باريس؟

ـ لا أتذكّر اسماً كهذا؛ لأني غير مشغولة بشأن الكُتُب والمكتبات، كما تعرف. ولكني سأسال إذا كان الأمر يهمّكَ.

رجوتُها أن تفعل. ولم تتأخّر عليّ في هذا، فعلاً، فبعد قرابة أسبوع، جاءتْني بعنوان المكتبة الإمبراطورية، وهي في قَلْب باريس، كما أكدتْ،

ووعدتْ أن تأخذَني إليها حين أرغب في ذلك. كان مزاجي في الأيّام التي تتالت، منذ أقمتُ مع صديقتي الإيطالية، قد استقام كثيراً. صارت باريس وراء حجابٍ مؤقّتاً. صرتُ لا أشعر بها تحيطني كأسوار موحشةٍ من العزلة، ولا تتطلّب مني الكثير من جهد القلب والعقل. كانت صديقتي الإيطاليةُ تتكفّلُ بمعظم هذه المتطلّبات. في المطعم، صرنا نفطرُ سوية، ونتغدّى سويةً عند الظهيرة. وبشأن العَشاء، اتّفقنا على يوم بعينه من أيام الأسبوع، نسهر فيه في مطعم عربي، نأكل، ونشرب زجاجة من النبيذ. لم أكتم عنها حقيقةَ ما انتابتْني من مشاعر غامضة، حين مَرَرْنَا بالمكتبة المحلّيّة، وحين سألتُها عن المكتبة الإمبراطورية؛ لأني في مساء ذلك اليوم، وعلى إثر رجوعنا إلى البيت من العمل، وكنا قد مررنا على فندق إقامتي لآخذ حقيبتي، وأغلق الحساب، وجدتني أفتح الحقيبة، وأُخرج منها المجلّد الأوّل، والوحيد الذي جئتُ به، لكتاب "مروج الذهب"، وأضعه على الطاولة. قلتُ لصديقتي، وقد قرأتُ على ملامحها شيئاً من تساؤل، وهي تنظر إلى الكتاب وإليّ:

ـ هذا كتاب المروج، وهو قديم، كُتب في القرن التاسع الميلادي، في بغداد. كتبه رجلٌ كثير الأسفار على الأرض، وكثير الأسفار في المخيّلة.

جلستُ على الطاولة، في حين انصرفتْ هي إلى الثلاجة لإخراج ما تراه ملائماً لوجبةِ عَشاء خفيفة. كانت تلتفتُ إليّ كمَن ينتظر تكملةَ الحديث. واصلتُ أنا:

ـ في الكتاب، وردتْ قصّةُ "مدينة النحاس" التي تقع في مكان ما من الشمال الأفريقي، تبتلع مَن يُطلّ عليها من أسوارها النحاسية المنيعة. تبتلعه، ولا يعود أبد الدهر. الحكاية، ولسبب لا أعرف كُنهه، استحوذتْ

عليّ، تماماً كما يستحوذ سجنٌ على سجين. أنا أحبّ الكُتُب، وأرى أن الزمنَ الماضي يتوارى في كتاب؛ ما إن أفتحه حتّى يُطلَّ عليَّ الزمن الماضي. وحين يُطلّ عليّ أنتسب إليه، فتتملّكني غبطةٌ في انتسابي هذا تعزُّ على الوصف؛ لأني، وهو محض اجتهاد، أشعر أن الكتابَ حين يُفتَح ليُقرأ، إنما هو نافذتي الوحيدة لحُرّيّتي كفرد. حُرّيّتي التي تنتشلني من الحاضر، الذي هو محض سجن. لقد أصبح حاضرُ "العبّاسيّة" مع السنوات سجناً. حاضرُ بغداد كلها، وحاضرُ الوطن الذي أنتسب إليه بمجموعه. ولعلّه سجنٌ قد امتدّ؛ ليستحوذ على عالمكِ الذي تُقيمين فيه، على العالم أجمع. لعلّي شممتُ رائحة ذلك عبر الشهور، التي بدتْ لي طويلةً، منذ دخولي باريس. مجرّد رائحة، لا غير.

صديقتي الإيطالية كانت تُصغي ذاهلة، وبجدّيّةٍ، لم أكن أتوقّعها، وهي تحمل في يدها زجاجةَ حليب، وعلبةً بلاستيكية من الجبنة الصفراء. قالت معلّقة:

ـ أنت قليل الأسفار على الأرض، على خلاف صاحبكَ المؤلّف، ولكنكَ كثير الأسفار في المخيّلة وحدها.

ـ ولكنْ؛ هذا شيء أشعر به.

ـ تتخيّله أوّلاً، وطبيعي أن ما تتخيّله يثير لديكَ المشاعر، كما أثارها لديّ. ولكنْ؛ بشأن السجن الذي امتدّ إلى عالمي، وإلى العالم أجمع، فأنا أوافقكَ الشعور. الزمن الحاضر هنا يرتسم في كيان كل فرد، يعيش مثلي في الغرب على هيئة ساعة معدنية بالغة الدقّة. ساعة تتكّ ثوانيها المعدنية في رأسه. مع الأيّام صار طيّعاً لقياد حركة الثواني. ولعلّ حياة

كهذه لا تعدو أن تكون سجناً. معكَ حقّ. ولكنْ؛ قل لي، هل حاجتكَ لعنوان المكتبة الإمبراطورية ذات صلة بما يعتمل في مخيّلتكَ، أو عاطفتكَ؟

ـ بالتأكيد. مقدّمة الكتاب الذي بين يديّ أشارت إلى مخطوطة محقّقة ضمن مخطوطات "المكتبة الإمبراطورية الوطنية" في باريس. طبعاً لم أتوجّه بالسفر إلى باريس رغبةً في الاطّلاع على هذه المخطوطة. كان الأمر محض صدفة. لقد اقترح أخي باريس؛ لأن لنا قريباً، أقام فيها قبل سنوات. وما إن تمّ الاتفاق على هذا، حتّى تذكّرتُ المخطوطة. كنتُ مولعاً بتجميع الصور الفوتوغرافية لصفحات المخطوطات، أقتطعها من الكُتُب العربية القديمة التي أقرأ. كنتُ أحبّ الخط العربي المكتوب، وأحاكيه. ولعلّ رغبتي بالاطّلاع على المخطوطة هنا هي وليدة هذا الوَلَع.

ـ أنا أتكفّل بعنوان "المكتبة الإمبراطورية الوطنية"، لا تقلقْ بهذا الشأن؛ وسأذهب معكَ، فالاستعارة تتطلّب إملاء استمارة، على ما أعتقد. هل تحبّ شاياً مع سندويتش الجبنة، أو كأس نبيذ؟

ـ مع الشاي. سأعمله أنا إن أحببتِ.

بعد أيّام، جاءت بالعنوان، وقرّرنا الذهاب سوية في يوم الاستراحة من العمل. كانت بي رغبةٌ أن أكتبَ رسالة لـ ملاذ" قبل النوم. قلتُ لصديقتي الإيطالية ذلك.

" من طاولة قربَ سرير النوم، من غرفتي في باريس، وفي الساعة الحادية عشرة، أكتب على هذه الورقة لغة عاجزة عن التعبير؛ لغة تبدو كلمة "أحبّكِ" فيها هزيلة، لا شأن لها بحرارة جسدي الذي يتوق إلى لمسة من أصابعكِ. ما أزال في عملي، ولقد اعتدتُه؛ وباريس أكبر حجماً

من وقت الفراغ الذي لديّ. لغتي الفرنسية تتقدّم كسلحفاة، وبالقدر الذي يُرضيني. غداً سأزور "المكتبة الإمبراطورية"، التي تضمّ مخطوطات عربية، من ضمنها مخطوطة لكتاب "مروج الذهب". فضول لا أستطيع مقاومته، ولعلّي حدّثتُكِ عن ذلك. سأكون على مقربة حدّ التماس من كتابة المخطوطة، ومن ورقها المرئيين، ولكنْ؛ دون صوت. هذه طبيعة الزمن الماضي حين يتحدّث. ولا بد أن أقف قليلاً عند "مدينة النحاس" طمعاً في قراءة هامش، ربّما تركه أحد قرّائها، على عادة الكتّاب القُدامى، يمنحني إجابة، ولو يسيرة، عن التساؤلات التي تتزاحم في داخلي. فضول لا أنكر غرابته. ولا أُخفي عنكِ أن كياني كلّه لم يتوقّف عن نبض هذا الفضول، منذ تأكد لي وجود هذه "المكتبة الإمبراطورية" في باريس. حين أستعيد "مدينة النحاس" تتلاشى الحدود بين بغداد وباريس؛ لتصبحا حقلَ تجارب واحد لعبث الحاضر. قيل لي إن الزمنَ الحاضر هنا يرتسم في كيان كلِّ فرد، على هيئة ساعة معدنية بالغة الدقّة، ساعة تتكّ ثوانيها المعدنية في رأسه. الزمن الحاضر في بغداد يرتسم على هيئةٍ أخرى. لا أعرف مقدار الصواب في مشاعري التي تُمليها عليّ "مدينة النحاس"، أيّتها العزيزة. كم أحتاجكِ إلى جانبي، أنت ومصطفى، أنت ومصطفى وأمّي وكل أهلي، حين أكون تحت ظلّ هذه المدينة التي تتّسع اتّساع العالم. سأواصل كتابتي لكِ ثانيةً، ربّما غداً. لا أعرف."

١٤

بقينا في الفراش، بعد يقظتنا، قرابةَ ساعة. بعدها نهضتُ، واتّجهتُ إلى الثلاجة، أُخرجُ منها بيضاً، وجبناً، وحليباً وشيئاً من خضار. سألتُ صديقتي الإيطالية:

ـ هل تشربين الشايَ معي؟ أم تفضّلين القهوة؟

ـ سأعملُ القهوةَ لنفسي. ولكَ أن تُعدَّ البيض على هواكَ. أُحبُّك حين تُعدّ طعاماً لكلينا.

أعددتُ بيضاً مقلياً، مع قليل من قطع الطماطة. وضعتُ الجبنةَ، والخبزَ الفرنسيّ والحليبَ على الطاولة، وجلسنا نأكل. كان كتابُ "المروج" على الطاولة أيضاً. قلتُ لصديقتي الإيطالية، وأنا أومئ للكتاب:

ـ هذه نسخةٌ قديمةٌ حجريةٌ، طُبعت في إيران مطلعَ هذا القرن. سنأخذُها معنا إلى المكتبة، فهي دليلي إلى موقع "مدينة النحاس" في المخطوطة. هل سيُسمح لكلينا بتقليبِ المخطوطة؟

ـ لا علم لي. هذا أمرٌ جديدٌ عليّ كلّ الجدّة.

ـ إنه جديدٌ عليّ أنا الآخر.

ـ سنأخذُ معنا جوازَ السفر، فهو هويّتنا الوحيدة؛ وأيةُ ورقةٍ رسمية تؤكد عنواني هذا. أعتقدُ أنهم سيطلبون ذلك.

كنتُ أشعرُ أن صديقتي الإيطالية تُخفي أمراً؛ لأن سكينةً ارتسمَتْ على ملامحها منذُ ساعة. لم أجرؤ على سؤالها، علّ أمراً شخصياً شغلها. خرجنا من استوديو السَّكَن الساعةَ الحادية عشرة والنصف. قالتْ لي:

ـ نحتاجُ أن نأخذَ الميترو؛ لأن المكتبةَ تقعُ في قلب باريس، ونحنُ على الأطراف. الميترو عادةً ما يكون قليلَ الزحمة في ساعةِ النهار هذه.

توقّفتْ، ثمّ التفتتْ إليَّ بملامحَ قلقة:

ـ حدث انقلابٌ عسكريٌّ في بغداد. جاء ذلك في أخبار الصباح. أعتقدُ أنه الانقلابُ الثاني هذه السنة. لم أرغبْ أن تعرفَ الخبرَ قبل الإفطار. هل كنتَ تتوقّع ذلك؟ هناك قتلٌ وإعداماتٌ، كالعادة.

توقّفتُ عن المشي، وقد قبضتْ صديقتي الإيطالية على أصابعي، وكأنها تقبضُ على عصبٍ نافر. من الصعبِ أن أحدّدَ ردّةَ فعلي حينها. كأني كنتُ أتوقّع ذلك، أو كأني أعرفُ ذلك عن قُرب، أو كأني غيرُ مبالٍ. قلتُ لها:

ـ داخلَ سلطة الحزب هناك صراعاتٌ دموية. يبدو أن واحدةً من هذه الصراعات تنفّستْ الآن، بصورةٍ من الصور.

ـ سنعرفُ المزيدَ حين نعود بعد المتحف. لا بدّ أنك قلقٌ بشأن العائلة؟ نستطيع أن نتّصلَ من تلفون البيت حين نعود، أو من تلفونٍ عموميّ، إذا رغبتَ.

ـ لا أستطيعُ، فليس لدينا جهازُ تلفون في البيت، على كل حال. أذكر أن أخي الكبير أشار في واحدة من أحديثنا العائلية إلى محاولة انقلابية. ولكننا لم نُعر انتباهاً. هناك استعدادٌ لدى الجميع، عساكرَ ومَدَنيين للقيام بانقلاب دموي. لستُ قلقاً، ولكني حزين.

شدّتْ على أصابعي. كنا على رأسِ السّلّم الكونكريتي الذي ينحدرُ إلى المترو. بعد وقتٍ لم أقدّرُ مداه، وجدتُني أرتقي سلّماً كونكريتياً للخروج. كنتُ أشعرُ بشيء من الإنهاك، لعلّي شَغلتُ النفسَ، عن غير إرادة، بما حدث. كان وجهُ مصطفى وملاذ لصيقين بوجهي، وشفاهُهما تمسّ أذني: لقد زرنا الوالدةَ قبل دقائق. كانت تدخّنُ مع عمّتكَ تحت شجرةِ التوت. تقول لعمّتكَ بأن قلبَها لم يعدْ يضطربُ كما كان. إنه على شيء من الطمأنينة؛ لأنكَ بعيد. الحسرةُ إليكَ، ولا الخوفُ عليكَ. اعتصرْ يدي، تقول ملاذ، فأعتصرها. صديقتي الإيطالية تلتفتُ إليّ، وتشدُّ على أصابعي. قالت لي بأنا دخلنا شارعَ "ريشيليو"، وسنرى المكتبة بعد دقائق.

كان السّلّمُ الروماني الذي يرتقي إلى بوّابتِها جليلاً، وبوّابتُها تتمتّعُ بالجلالِ المهيب ذاته. في درجةِ السّلّمِ الأولى، احتضنتُ كتاب "المروج" لدافع لم أتبيّنه. اعتصرتُه على الصدر، وأنا أسأل صديقتي الإيطالية إذا ما كانتْ متأكدةً بأنهم سيسمحون لنا بطلبِ مخطوطة، والاطّلاعِ عليها.

ـ سندخلُ، نسأل، ونرى. ولكني لا أعتقدُ أن هناك، مانعاً. المكتبةُ مفتوحةٌ للباحثين، والطَّلَبَة. ولابدَّ أن تكونَ أنتَ واحداً منهما.

دخلنا البوّابةَ، فانتابني شعورٌ بأنها لا تعزّز لديّ فكرةَ البحث فحسب، بل تعطيها طابعاً جدّيّاً مُبالغاً به، وخطورةً جعلتْ خطواتي بطيئة ومتردّدة.

بعدها دخلنا بهواً بيضوياً هائلَ الحجم، تشوبُ لونَ خشبه البنّي حمرةٌ شفقية. تغطّي جدرانُه المستديرةُ رفوفَ الكُتُب، من الأرض حتّى السقف البعيد، على أنها موزّعة على عدّةِ طوابقَ، فيها شرفاتٌ تدور فوقنا، وعليها تدبُّ خُطى الباحثين، وقد بدوا لي صغارَ الحجم. أحاطتْني رائحةُ الخشب القديم، والورقُ القديم. رائحةٌ كثيفة أثقلتْ على أنفاسي، ومنحتْني قدراً من عتمةِ الخيالِ، لا يُقاوم، حتّى لكأني سمعتُ أصداءً من وقع خطواتي على السّلّم الحجري. امتدّت ذراعُ صديقتي الإيطالية إلى ذراعي، وأعادتْني إلى النفس قائلةً بهمس:

ـ نعودُ إلى مكتب الفهارس، واستعارة الكُتُب.

أمام أدراجِ الفهارس، كانت صديقتي تُحسن تُقليب كارتات العناوين بخفّةِ كائنٍ طويلِ الممارسة. تناولتْ من فوق أحدِ الأدراج ورقةً، أخرجتْ قلماً من حقيبتها الصغيرة، وراحتْ تكتب بالفرنسية عنوانَ مخطوطتين عثرتْ عليهما: ٧١٤، مسيو رينو، مصدرُها القسطنطيية، ٨٣٢ ورقة. و٥٩٨، مصدرُها صفَد من أعمالِ فلسطين، ١٣٧ ورقة. قرأتْ عليّ المعلومات، فقلتُ لها متحرّجاً بأن مخطوطةً تكفي، إذا استعصى على الرجل توفيرَ المخطوطتين.

وقفتُ على مَبعدةٍ في حين انصرفتْ هي إلى مكتبٍ خشبي مستطيل، يقف خلفه رجلٌ كهلٌ. تحدّثتْ معه دقائق، ثمّ عادتْ لي، وأخذتْ جوازَ سفري. بعد فترةٍ وجيزةٍ، جاء الرجلُ الكهلُ يدفعُ عربةً صغيرة، وقد استقرَّ على سطحها مجلّدان أسودان. فوقهما ألقى كيساً بلاستيكياً صغيراً. قالت صديقتي هامسة:

ـ الكيس يحتوي على قفّازين من النايلون الرقيق، بهما تُقلّبُ أوراقَ المخطوطة. استخدامُ الكاميرا للتصوير ممنوعٌ إلا بإذن. لا يحِقُّ لي مصاحبتُكَ. ستذهب وحدكَ إلى هذه القاعة الصغيرة الجانبية، والرجلُ جاهزٌ لأيّة خدمة. إذا احتجتَني للترجمة، فأنا سأجلسُ على مقربة من فهارس الكُتُب.

دفعتُ العربةَ، وفي إبطي الأيمن حشرتُ الطبعةَ الحجريةَ من كتاب "المروج"، وأنا أتأمّلُ بشيء من التوجّسِ القلقِ، المجلّدين الأسودين، وكأنهما ينطويان على نذيرٍ شخصيٍّ، أو بيانٍ بقرارِ حكم. أمامَ طاولةٍ عليها إضاءةٌ هادئة، توقّفتُ. أخرجتُ القفّازين الأبيضين الرقيقين، ولبستُهما. تناولتُ المجلّدَ الأوّل، ووضعتُه على الطاولة، وجلستُ، وأنا أمدُّ أصابعي تشدّني رغبةٌ ملحّة في تقليب أوراق المخطوطة، وكأنني على موعدٍ مع ورقةٍ في المخطوطة بعينها. إلى جانبها، وضعتُ الطبعةَ الحجرية، وفتحتُها على صفحةِ "مدينة النحاس"، التي لم يبقَ منها أثر، إلا في بقايا حروفٍ مبعثرة.

أوراقُ المخطوطة ليستْ ثقيلةً، كما توقّعتُ، ولكنها أشبه بقِطعِ قماش مُنشّاة. تمسّها أطرافُ أصابعي، فتنقلبُ بيسرٍ من جهة لأخرى. أتأمّل الخطَّ في الكلمات، فأتذكّرُ محاكاتي لها في بغداد. أقرأُ بعضَ الكلماتِ، الجملِ، الأسطرِ فأُسرُّ حين أتذكّر موقعَها في النسخةِ المطبوعةِ لديّ، في الصندوقِ الخشبي ببغداد.

أقلّب أوراقَ المخطوطة، ولا أغفّلُ عن متابعةِ الطبعةِ الحجرية إلى جوارها. وفجأةً، ما إن عرفتُ أني عند "مدينة النحاس"، وجدتُني أمام صفحةٍ كالفمِ الفاغر، يشبه تماماً الفمَ الفاغر الذي وقعتُ عليه في نسخة الطبعة الحجرية. هبطتْ قدرتي على التركيزِ إلى النصف. مددتُ يدي

إلى العربةِ، أتناولُ المخطوطةَ الأخرى، وقد ازدادتْ رائحةُ الخشب القديم والورقُ القديم كثافةً. وضعتُها أمامي على الطاولةِ، ورحتُ أقلّب، مدعوماً بقناعةِ مَن يعرف موقع تلك الصفحة بين الصفحات. وبحُكمِ هذه القناعة، ربمّا، كنتُ أُسرع في التقليب حتّى بلغتُ الفمَ الفاغر ذاته. صفحةُ "مدينة النحاس" التي لا تُرى، ولا تُسمع، صفحةُ ورقةٍ بلون الملح، وقد عبثتْ بها يدٌ جانيةٌ عبثاً، لا رحمةَ فيه. قاربتُ الصفحتين في المخطوطتين المتجاورتين، فكانتْ اليدُ العابثة واحدةً، وبقايا الحروف المتبقّية تكاد تكون كذلك.

لم أجد أثراً لـ "مدينة النحاس" إذنْ، وكأن صداها المتردّد قد طويتُه مع صدى خطواتي على السّلّمِ الحجري للمكتبة الإمبراطورية الوطنية، وأودعتُه في الفمِ الفاغر، الذي أراه يتكرّرُ أمامي في الطبعة حجرية، والمخطوطتين. خرجتُ إلى صديقتي الإيطالية، ولعلّها رأتْ نشافَ بشرتي، وصفرتَها، فاحتضنتْني، وهي تقولُ لي بصوتٍ خفيض:

ـ لا بدّ من الاتّصالِ بالأهل في بغداد؛ لكي تطمئنّ. الأحداثُ تزدادُ سوءاً هناك، وقلقكَ في مكانه. تقول الأخبار إن الانقلابيين علّقوا جثثاً كثيرةً في الساحةِ التي تعرفها. هذا شيء فظيع.

لم ألتفتْ إليها، وأنا أتحدّث. كان الصوتُ يخرج من فمٍ غير فمي:

ـ الجثثُ تُعلّقُ في ساحاتِ بغدادَ عبر تاريخها كلّه. تتعفّن، ويتنشّقُ العراقيون الرائحة.

خرجْنا من المكتبةِ، ونزلْنا السّلّمَ الحجريَّ بحذر. لا أعرفُ أيَّ دافعٍ أوعزَ لي أن ألتفتَ إلى الخلف؛ لأرى قامةَ الرجلِ الكهلِ تتبعُني بخطواتٍ كخطواتي. لم يكن الرجلَ الكهل الذي جاء إليّ بالمخطوطتين قبل ساعة من

رفوف المكتبة العريقة، بل هو الرجلُ الكهل الذي أعطاني قبل أشهر ورقةً باسمه العَصيِّ على القراءة. الرجلُ الكهلُ ذاته، بالبدلة السوداء القديمة التي لم تكن تلائم حرارة الصيف، في مكتبة المسجد الحسيني. لم أستدر إليه، ولا إلى خطواته ثانيةً. كانت المفارقةُ أعجزَ من أن تحرّكَ بي ساكناً.

رجعنا إلى البيت، وكنتُ محموماً، كثيرَ الوسواس. ارتميتُ على السرير محتضناً صديقتي الإيطالية، وقد ارتمتْ معي، وهي لا تكفُّ عن رجائي بأن أتذكّرَ رَقْم هاتفٍ، أتصلُ بهِ في بغداد.

استيقظتُ مع مطلعِ الشمس. رأيتُ وجهَ صديقتي إلى جانبي مستيقظاً، يُطلُّ عليّ. ورأيتُ كلَّ أشياء الغرفة مُعرّضةً للمسة الضوء، التي ما تزال رقيقةً. وجه صديقتي في الظلّ، بعينين مُستغرقتين في قراءة وجهي.

لم أقلْ لها ما حصلَ مع المخطوطتين. لم أقلْ لها شيئاً عن اليد التي عبثتْ بنصِّ "مدينة النحاس" فيهما، وفي الطبعةِ الحجريةِ من كتاب "المروج" من قبل. عن الرجل الكهل، وعن غيرِ المرئي لم أقلْ شيئاً. الصمتُ صار ثقيلاً بيننا، وكنتُ أتوقّع ذلك. فالصمت يثقُلُ حين تنعدمُ المشاركة، وهل أُفسدُ بالمشاركةِ فتاةً على هذا القدرِ من البراءة؟

منذ ذلك اليوم، وفي عمقِ المنفى المجرّد عن الزمان والمكان، أصبحتْ "مدينةُ النحاس" تستحوذُ على ماضيّ كلِّه، وعلى ذاكرتي كلِّها.

لندن، ٢ - ٢١/ ٦/ ٢٠١٦

فهرس الرواية

مقدّمة قد تكون نافعة، وإهداء ٥

القسم الأوّل..... ٩

القسم الثاني..... ١٠١

معرف قنـــاة
Arab_Books
الجديـــدة
Telegram: @Arab_Books2
2018/5/18

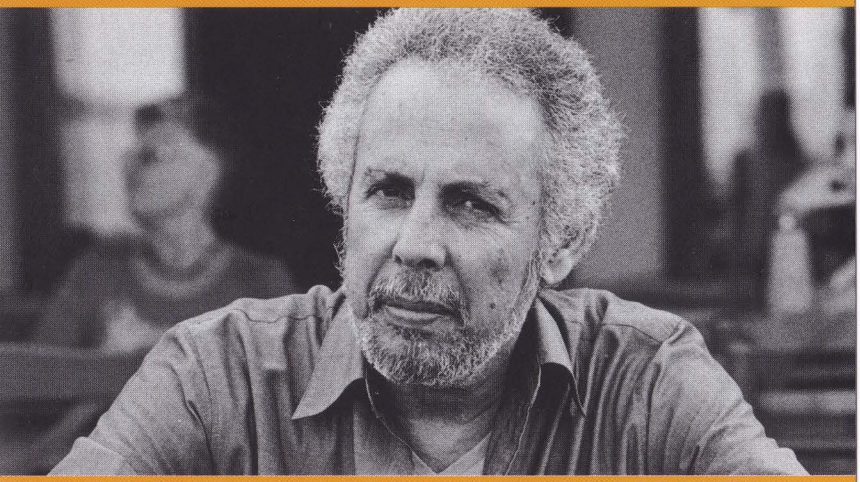

فوزي كريم: أحدُ أبرز الشعراء والكتاب العرب من الجيلِ الستيني. ولدَ في بغداد ١٩٤٥، وتخرّج من جامعتها، وانصرفَ بعد عامٍ في التدريس إلى العملِ الحرّ ككاتب. هاجر إلى بيروت وأقامَ فيها ٦٩ ـ ١٩٧٢، ثم إلى لندن، منفاه الثاني، منذُ عام ١٩٧٩ حتى اليوم. أصدر مجلةَ «اللحظة الشعرية» لبضعة سنوات، وواصل كتابةَ عموده الأسبوعي في الصحافة الثقافية طوالَ حياته، في الشأن الشعري، الموسيقي والفني. له أكثر من ٢٢ مجموعة شعرية، منها مختاراتٌ صدرت في الإنكليزية، الفرنسية، السويدية، والإيطالية. إلى جانب الشعر له أكثر من ١٨ كتاباً في حقل النقد الشعري، الموسيقي والقصة. وله معارض عدة كفنان تشكيلي.

منشورات المتوسط

البطلُ الشاب مأسورٌ لسحر الكتاب، والكتابُ القديمُ بشكل خاص. مرةً يقع على خبر «مدينة النحاس» في أحد مناحي المغرب العربي، في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي، فيؤخذ بحكايتها الأسطورية. في بحثه عن هذا الخبر في نسخة محققة، موثوقة من كتاب المروج، يُقادُ إلى ملاحقة الكتاب، حتى في مخطوطاته في «المكتبة الوطنية» في باريس، ولكنه في أكثر من مرة يجده وقد عبثت به يدٌ جانية، فلا يُقرأ.

هويةٌ إنسانيةٌ لا تنتسبُ لتاريخ بعينه، إلا ما ينطوي عليه هذا التاريخ من سطوةٍ للعقيدة الواحدة على مقدّرات الانسان الأعزل. الانسان الأعزل هذا يجدُ مخرجاً سحرياً في الماضي، عبر الكتاب الذي ينتسب لهذا الماضي. الحاضرُ كتيبةٌ مسلحةٌ لمحْقِ الكائن، والمستقبلُ بعدٌ للزمان إيهامي. خبرُ «مدينة النحاس» يرد على البطلِ في كتاب «مروج الذهب» عرَضاً، وإذا به هوةٌ فاغرةٌ تبتلع البطل المحاصَر؛ تلاحقُه منذ ذلك اليوم، داخل محلته وفي منفاه. المأزقُ تاريخي، وميتافيزيقي في آن.

Arab_Books

ISBN: 978-88-85771-30-7

المتوسط